أمين سلامة

عيون الحب لا تنام

مكتبة علي بن صالح الرقمية

أمين سلامة

عيون الحب لا تنام

مجموعة قصصية

1991

مكتبة علي بن صالح الرقمية

مقدمة

لأول مَرَّة أعترف بأن مُعظَم قصص هذا الكتاب من خيالي البحت، باستثناء ثلاث أو أربع قصص مُستمَّدة من واقع الحياة. وقصة واحدة واقعية بجميع حذافيرها، من تاريخ وأسماء وأرقام ووقائع ونتائج. ولا بد أنْ سيدركها القارئ من تلقاء نفسه.

ومع ذلك، فأرجو أنْ يجد القارئ العزيز في هذه القصص ضالَّته المنشودة من متعة وعظة.

قد يظن القارئ أنَّ كتابة القصة لا تحتاج إلى مجهود، أو إعمال الفكر. هذا غير صحيح؛ فالقصة لا يمكن أنْ تُسمَّى قصة، إلا إذا كانت وراءها فكرة سليمة مُقنِعة ومعقولة، تُرضي القارئ، وتُثري عقله بالرأي القوي السليم، وبالموعظة المفيدة.

لذا أعترف — ولأول مرة — بأن تأليف هذه القصص أنهكَني وأرهقَني، ونال مِنِّي تمامًا؛ حتى إنني كنت إذا ما فرغت من قصة، ظللت الساعات تلو الساعات أفكِّر في موضوع القصة التالية ووقائعها وخاتمتها ... حتى يهديني الله، ويوحي إليَّ، بما أريد.

ما كنتُ أظن أنني سأستطيع تضمين هذا الكتاب عشرين قصة. ولكن الله — جلَّت قدرته — مكَّنني من كتابتها. فهو إذا أراد شيئًا، إنما يقول له: (كُنْ فَيَكُونُ) ... وبذا أراد لكتابي هذا أنْ يرى النور، بالحجم المناسب المعقول.

قد يكون الهدف من هذه المجموعة القصصية غامضًا، أو غير واضح بالنسبة للقارئ، إلا أنَّه بعد أنْ يقرأها سيعرف الهدف من كل قصة، وما ترمي إليه من غرضٍ سامٍ؛ فوراء كل قصة فكرة معقولة، مهما تبدو خارقة.

هذا هو كتابي التاسع أو العاشر، في مجال القصة القصيرة. وإني لَأشكر القرَّاء الذين أمطروني برسائلهم تحمل عبارات الإعجاب والتقدير لما قرءوه في كتبي السابقة، في مضمار القصة القصيرة بالذات. ولعل هذا هو ما شجعني على المُضِي في هذا الطريق؛ فأقدم هذا الكتاب الجديد، وأنا مقتنع غاية الاقتناع، بأنني أُسْدي إلى القارئ العربي خدمة بالغة الفائدة، سوف تَلقى منه نفس الترحيب والقبول.

هناك حقيقة هامة، ربما لا يعرفها القارئ، ألا وهي ما أصاب عالَم النشر من نفقات باهظة تكاد تكون خيالية، من ارتفاع أسعار الورق، وأجْر عمَّال الطباعة، وأثمان المواد والأصباغ وغيرها مما يلزم للطباعة ... وبذا أصبحت هذه النفقات عقبة كَأْدَاء تقف في طريق طبع ونشر أي كتاب. وقد لا يعلم القارئ العزيز أنني أطبع مُعظمَ كتبي على نفقتي الخاصة، ومن جيبي الخاص، الذي كاد يخلو من كل نقود.

لهذا السبب، سأجد نفسي سعيدًا جدًّا، إنْ وفَّقني المولى الكريم إلى نشر هذه المجموعة، وإخراجها إلى حيِّز النور. ففي هذا إثراء للمكتبة العربية، رغم قِلة ما يُوزَّع ويُباع، نظرًا لارتفاع سعر الكتاب المصري، مما يجعل الإقبال عليه قاصرًا على الفئة القادرة ماديًّا، وعشاق القراءة، وهذا نادرًا ما يتوفر.

ختامًا، أعتذر للقارئ الكريم، لو وجد في كتابي هذا أي تقصير، فهو غير مقصود مني بأية حال، والله ولي التوفيق.

المؤلف
أمين سلامة
٩١/١٢/٩

الفصل الأول

لوعة الحب

عندما أحبَّت نادية جارها محمودًا، لم تحبه من فراغ، بل عرف كل منهما الآخر منذ أنْ كان في غضاضة الإهاب بحكم الجيرة والعشرة الطويلة. وما زاد في تعلُّق أحدهما بالآخر أنْ كانت نافذة حجرة نوم نادية أمام نافذة حجرة نوم محمود؛ فكان كل منهما يرى الآخر ويتحدَّث معه. وشيئًا فشيئًا توطَّدَت تلك العلاقة إلى حُب جارِف مع توالي الأيام، وتعاقُب الشهور والأعوام. وكان في مقدوره أنْ يراها وهي نائمة في فراشها، ولا سيما في فصل الصيف؛ إذ يجبرها الحَر الشديد إلى أنْ تترك شباك حجرتها مفتوحًا، وعندئذٍ يُطفئ محمود أضواء حجرته ويسترِق النظر إلى ما يتعرَّى من أجزاء جسم نادية وهي نائمة؛ وبذا تتأجج نيران الحب في قلب محمود، حتى تملَّك حبُّها من قلبه وسيطر على عقله وجَنانه لا سيما وأن جسم نادية كان أبيض ناصعًا مُشرَبًا بحمرة خفيفة جعلته وردِي اللون جذابًا. وهكذا كان يقضي معظم لياليه مؤرَّقًا مسهدًا، ينظر إلى جسم نادية من خلال فُرجة بين مِصراعي نافذته، ونادية لا يخامرها أي شك في أنَّ أحدًا ما يتمتَّع برؤية جسمها البض. فليس أمام شباكها سوى شباك محمود وهو نائم وقد أطفأ أنوار حجرته ونافذته مُقفلة ... وهكذا يقضي غالبية ساعات الليل أمام النافذة حتى يغلبه سلطان النعاس في سويعات الليل الأخيرة، فينام إلى ساعة متأخرة من الصباح.

كبرت نادية، ونضجت أنوثتها، وبرزت مفاتن جسمها، واشتد اهتمامها بماكياجها ليزيدها جمالًا على جمال؛ إذ كانت مَليحة الوجه، خفيفة الروح والظِّل، جذَّابة الملامح والتقاطيع، ذات حركات ساحرة، تتهادى في مشيتها بما يثير الغرائز الكامنة، ويأخذ بمجامع القلوب والألباب. وبذا كَثُر عدد مُطارِديها ومُلاحِقيها. وكان محمود يَغار على نادية من الهواء إذ يلمس وجهها الصبوح وشَعرها الذهبي البرَّاق، ويحسد ملابسها؛ لأنها تَلمَس جسمها الجميل الفاتن، ويتمنى أنْ يكون هو مَن يَلمَس ذلك الجسم، ويعتصر صاحبته بين ذراعيه، ويشبع من تقبيلها بحرارة ظنًّا منه أنْ ذلك يطفئ نيران الحب، ولكن الواقع أنَّ مجرد النظر إليها كان يلهب كل جسده.

جاء اليوم الذي التحقَت فيه نادية بالجامعة، وتعرَّفت بالكثير من الشبان. فكان يحلو لها أنْ تسير الهُوينَى في طريقها، وتتفنَّن في أنْ تهز أردافها بطريقة مثيرة تلفِت إليها الأنظار.

أبصر محمود نادية وهي تمشي في طريقها إلى الجامعة بهذا الشكل المثير؛ فراودته الظنون والشكوك، فعندما تخرج معه في نزهة تتوخَّى أنْ تسير سيرًا عاديًّا، فلماذا هذه الحركات وهي في طريقها الطويل وهي ذاهبة إلى الكلية في الصباح، وعندما تعود إلى منزلها في المساء؟ لا بد أنْ قلْبَها مشغول بحب شخص غيره، أو هي تمهِّد الطريق إلى حب جديد غَيْر حبها محمودًا، لا سيما وهي الآن في ريعان الشباب، وميعة الصبا.

حاول محمود، وهو يتنزَّه مع نادية ذات مرة أنْ ينهرها عن ذلك المسلك المشين، خصوصًا وأن العيون ترمقها جيئةً وذهابًا، وشُبَّان اليوم لا هَمَّ لهم إلا مُلاحَقة مَن يرونها خليعة سهلة الصيد.

دُهش محمود، بل ذُهل عندما أفهمته نادية أنها حُرة في طريقة سَيْرها ولا يمكنها أنْ تغيرها لمجرد أنها لا تعجبه، فإن راقه أنْ يراها تمشي على هذا النحو، كان بها ونِعمَت، وإلا فليغمض عينيه ... ما هذه الجرأة؟ وما هذه الجسارة والوقاحة التي تعلَّمَتها نادية أخيرًا، بعد أنْ عرفت الجامعة ومَن بها من زملاء، جُلُّهم يميل إلى الحب والعشق والتمتع بالزميلات الجميلات الفاتنات؟

ما كل صراحة محبوبة، ولا كل حُرِّية مقبولة. فما سمعه محمود من نادية، أثار حفيظة نفسه، وبدأت العلاقة بينهما تخبو وتتعكر، ويفتر ذلك الحب الذي بلغ الذروة أو كاد يبلغها ... فتعكَّر صفاء علاقتهما، وظلَّلَت غيوم الشكوك حُبَّهما الذي ربط بين قلبيهما منذ عهد الطفولة البريئة إلى طَور الشباب الأرعن المتقلِّب.

شاء سوء الحظ، أنْ يرى محمود نادية، بمحض الصدفة، وهي تعود إلى بيتها في صحبة شاب، يسيران وئيدًا، ويتحدثان أثناء الطريق في حُرِّية تامة كأنهما صديقان من زمن طويل ... وما إن اقتربَت من البيت حتى سلَّمَت عليه بحرارة، فتركها ذلك الشاب الغريب وهو يلوِّح لها بيده أثناء عودته أدراجه.

أثار ذلك المنظر غضب محمود، وأكد له أنَّ حب نادية إياه، الذي دام طوال سِني حياته، قد أخذ يتحوَّل إلى ناحية أخرى. فاشتعلت نيران الغيرة في قلبه العامر بحب نادية، والذي لم يَتَّجِه نحو أية فتاة سواها، مَهما تكن جميلة أو خليعة ... فلما التقى بها حدث شجار كبير، وتحقيق مرير ... وازدادت ثورة قلبه عنفًا عندما أعلمته نادية أنَّ ذلك الشاب ليس إلا زميلًا لها بالجامعة، كلَّف خاطره أنْ يشاركها الطريق كي لا تشعر بالوحدة، وحتى لا

يتجرأ أي شاب على معاكستها، وهي مَحَط أنظار الكثيرين من طلاب الكلية وغير طلبتها.

ساءت العلاقة بين محمود ونادية، وهو مُحقٌّ في أنْ يغار عليها بعد كل ذلك الحب، الذي ربما أدَّى إلى زواجه بها. فلا يرضيه أنْ تكون هناك علاقة، مَهما تكن بريئة، بين من سَتكون زوجته مستقبلًا، وبين شاب غريب، فيسيران معًا على مَرأى من الجميع «وعلى عينك يا تاجر.» ... وما زاد في غضبه أنَّها رفضت أنْ تُقلع عن مسلكها هذا، وأصرَّت على أنَّ لها مُنتهَى الحرية في تصرفاتها كما يَروقُها، خصوصًا وأنها غدَت طالبة جامعية وما عادت طفلة تَنقاد إلى رأْي هذا أو ذاك.

تحمَّل محمود الأرَق ليالي وليالي، بعد أن اتخذت نادية موقفًا غريبًا معاديًا، وضَربَت بذلك الحب الطويل عُرْض الحائط كأن لم يكن. وأوصدت نافذة حُجرتها ولم تَعُد تفتحها إطلاقًا كي لا يراها محمود، ولا تراه، ولو من بعيد ... هذا برهان أكيد عن أنَّ قلب نادية قد تحوَّل إلى جهة أخرى، ما في هذا رَيب. لقد سدت في وجهه كل المنافذ، وتَفانَت في أنْ تَغيِّر من مواعيد خروجها وعَودتها، وأن تسير في طرقات غير التي اعتادت السَّير فيها. وهذا إمعان في قَطْع علاقتها به، وتأكيدٌ له بأنها ما عادت تحبه، وليس من حقه أنْ يُملي عليها إرادته أو توجيهها حسب رغبته.

كاد الهم والغم والأفكار والحزن، تقتل محمودًا. وما عاد يهنأ بطعام أو شراب أو نوم أو راحة ... ماذا يفعل بعد ما أصاب علاقته بنادية، وحبها إيَّاه وحبه إيَّاها المتغلغِل في قلبه عميقًا والذي كان يسيطر على جميع حركاته وسكناته، ويشغل باله وتفكيره ليل نهار ... أصاب ذلك الحب الفتور بل

الانعدام وأصاب أعصابه بالتوتر، ودمه بالغليان، وهو في طريقه إلى القطيعة التامة.

لن يموت الحب بين محمود ونادية، بمثل هذه الطريقة الدَّنيئة ... فعوَّل محمود على أنْ يراقب نادية في كل رَوحاتها وغَدواتها، وحركاتها وسكناتها، مَهما يكلفه من جهد، وعزم على أنْ يتفرَّغ لهذه المراقَبة بأي ثمن ... فَتنكَّر في صورة غريبة لا يمكن أنْ يعرفه فيها أي شخص، حتى أقرب المقرَّبِين إليه، وساقَتْه قدماه إلى كلية نادية نفسها، ليدرس مسلك نادية هناك، مِن كَثَب، ويعرف حركاتها وعلاقاتها، وما قادها إليه سُوء فَهْمها لمعنى الحرية التي ساقتها إلى تَمضِية معظم أوقاتها بالنهار في الكافيتريا مع هذا وذاك من زملائها طلبة كُلِّيتها.

وجد محمود نادية تجلس مع الكثيرين وتتحدث معهم بألفاظ تَقشعِر منها الأبدان، وتضحك ضحكات عالية بعيدة عن الحِشمة والأدب ... وما زاد الطين بلة، انصرافها مع شاب وسيم الوجه، جميل الخلقة يبدو عليه الثراء الواسع ... صَحِبها في سيارته المرسيديس آخر موديل، وانطلق بها يسابق الريح، إلى خارج أسوار الجامعة، وإلى حيث لا يعلم غير الله وحده. فأثار هذا الكثير من الشكوك في علاقة نادية بذلك الشاب الذي تتمنى كل فتاة أنْ تكون معشوقته أو زوجته.

كان هذا الحدث، هو الطَّامَّة الكبرى، والبلاء الأعظم، والقَشَّة التي قَصمَت ظهْر البعير وأناخت به ... ولأول مرة، تجرَّأ محمود على أنْ يتصل تليفونيًّا بوالدة نادية، ونقَل إليها صورة حقيقية لما رآه وشاهَده بعيني رأسه من تصرفات ابنتها في حَرَم الجامعة، ثم ركوبها مع شابٍّ وسيم سيارته الفارهة. وبيَّن لها ما قد يحدث من وراء ذلك العبث الأهوج من أضرار

بمستقبل ابنتها وأخلاقها وصِيتها الذي لا بد أنْ تَلُوكه الألسنة ... ظنًّا منه أنَّ الأم ستقف من ابنتها موقف الحزم، فتلقنها الدرس اللازم لتقويمها وإصلاح اعوجاجها وسلوكها داخل الكلية وخارجها.

ولكنْ تأتِي الرياح بما لا تشتهي السفن؛ فقد خاب أمل محمود ... لا بد أنَّ أم نادية على عِلم بتصرفات ابنتها وتُحبِّذها لها وتُشجِّعها عليها: «اكفي الزبدية على فمها، تطلع البنية لأمها.»

بعد أنْ مضى على هذا الأمر بضعة أيام، رأى محمود نادية جالسة في شرفة بيتها. ولكنها لم تكن وحدها، وإنما كانت مع ذلك الشاب الوسيم، يَرشفان القهوة معًا ويتبادلان النكات والضحكات.

جُنَّ جنون محمود لهذا المنظر المُزْري المُثير، وعوَّل على الانتقام لكرامته التي أُهدِرت بعد أنْ خَطَت نادية هذه الخطوة تَتحدَّى فيها محمودًا كَردِّ فعل لاتصاله تليفونيًّا بأمِّها يطعن في سلوك ابنتها، ولِتُفهِمه أنها ما عادت تُحبه بل يَنصَب كل حبها على ذلك الشاب الذي وجدَت فيه ضالَّتها المنشودة، أما الحب بينها وبين محمود فكان لعب عيال وتصرفات أطفال لم تنضج عقليتهم لتتمشى مع الواقع أو تَتطوَّر بتطوُّر الزمن ومراعاة الصالح وانتهاز الفرصة وهي ساخنة ... فمَن يكون هذا المحمود بالنسبة لفتى أحلامها؟ والد محمود مجرَّد ضابط شرطة لا يملك سوى مُرتَّبه الذي لا يكفي شراء عِقد تضعه حول رقبتها. أما والد هذا الشاب فمليونير صاحب عمارات ومصانع، لا يعرف للأموال حسابًا؛ لذا أهداها ابنه الكثير من المجوهرات الغالية التي لا يستطيع محمود أنْ يحصل على حَبَّة واحدة من عِقد تتحلَّى به.

نزل محمود إلى الشارع أمام باب داره، ينتظر خروج ذلك الغريم الذي حل مَحلَّه في قلب نادية. وما إنْ أبصره يخرج من باب العمارة حتى انهال

عليه صفعًا ولكْمًا وركلًا وضربًا بحزام من الجلد. وكان محمود قَوِي البنية مفتول العضلات على عكس ذلك الشاب المدلَّل صاحب الخدم والحشم والأموال والسيارات. وعلى هذا لم يترك محمود خصمه إلا بعد أنْ أشبعه ضربًا يذوق الموتَ مَن ذاق طَعْمَه.

اعتقد محمود أنَّ ما أقدم عليه سوف يُخيف نادية، ويجعلها تقطع علاقتها بذلك الشاب الوسيم، فتعود إليه مطيعة مُذعِنة، وبذا يسترد حبَّه الذي كاد يضيع، ويحظى بمعشوقته التي أوشكت أنْ تفلت من بين يديه ... هكذا صوَّر له خياله، وأقنعَتْه أوهامه.

غير أنَّ نادية لم تكن من ذلك النوع الذي تَخيَّله محمود، وإنما كانت تلعب بالبيضة والحجر، فصمَّمت على أنْ تبين لمحمود: «إِنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ». فحرَّضت فتاها على أنْ يأخذ بثأره من محمود، ورسمَت له خطة الانتقام المؤقَّت، وما خفي كان أعظم وأمَر.

تظاهرَت نادية بأنها لُقنت درسًا يجعلها تترك ذلك الشاب الوسيم، وتعود إلي محمود حبيبها الأول، فما الحب إلا للحبيب الأول. فأكَل محمود من الطُّعم، واتَّفق مع نادية على أنْ ينتظرها وهي في طريق خروجها من الجامعة؛ ليذهبا معًا إلى حدائق الأورمان. ولكن، ما كاد محمود يقترب من ذلك المُنتَزه حتى تصدَّى له الشاب الوسيم ومعه أربعة من خدَمِه الأقوياء المُسلَّحِين بالعِصِي والسِّياط، فهجموا على محمود ولم يتركوه إلا وقد افترش الأرض مُثْخنًا بالجراح. فجاءت سيارة الإسعاف ونقلته إلى المستشفى، ظل عدة أسابيع يُعالَج من إصاباته بمختلف أجزاء جسمه.

بذَل والد محمود، بصفته ضابط شرطة، كل جهوده للقبض على من اعتدَوا على ابنه ووحيده، ولكن دون جدوى، وقُيِّد المحضر ضد مَجهولِين.

لم تكتف نادية بما حدث لمحمود، بل تمادَت في إثارته بطريقتها الأنثوية الخاصة، لتغيظه أكثر وأكثر. فجعلت الشاب الثَّرِي يقضي الليل كله معها في حجرة نومها بحجة الاستذكار معًا ... وتكرَّرت هذه السهرات عدة مرات، وشُبَّاك حجرة نادية شِبه مقفل، ولكنها كانت تترك فُرجة بين مِصراعَي الشُّباك هربًا من الحر.

وضع محمود في ذهنه أنْ يرى بنفسه ما يدور بين نادية وفتاها الجديد، فثقب ثقبًا في شيش نافذة حُجرته يسمح له برؤية ما يدور عند استذكار نادية دروسها مع ذلك الشاب. على أنْ تكون حجرة محمود مُظلمة كي لا تراه نادية وتعرف أنه يراقبها.

ذات ليلة، خرج والد نادية وأُمها لزيارة بعض أقاربهما تاركِين نادية تستذكر دروسها مع ذلك الشاب، والأم تعلم ما سيحدث بين ابنتها وعاشقها لترغمه على أنْ يتزوَّجَها. فما إنْ خرج الوالدان حتى خلعَت نادية فستانها بحُجة الحر الشديد، وبقيت بالقميص الشفَّاف الذي يبدي أكثر مما يخفي. فاحتضنها الشاب وصار يقبلها بحرارة، وطوقها بذراعيه. كل هذا ومحمود يُراقبهما ... وأخيرًا كان ما لا بد منه.

غلَى الدم في عروق محمود، وكادت الشرايين تنفجر في رأسه؛ فتسلَّل إلى حُجرة والده على أطراف أصابع قدميه، وأخَذ مُسدَّس والده، ونزل إلى الشارع ينتظر غريمه في الظلام.

ما هي إلا ساعات قلائل حتى أبصر محمود الشاب يخرج ونادية تخرج معه لتوديعه بالأحضان والقُبلات. فأطلق محمود رصاصة اخترقت ظهر نادية ونفذت في قلبها فأردَتْها صريعة على الفور، ونفذت من جسمها إلى صدر الشاب الوسيم فاخترقَته واستقرَّت داخل جسمه.

سمع العَسس صوت الطلق الناري، فانطلقَت الجحيم من عقالها، وأسرعوا إلى مصدر الصوت فألْقَوا القبض على محمود، ونَقلوا الشاب إلى المستشفى، ونادية إلى المشرحة؛ حيث قرَّر الطبيب الشرعي الذي شرَّح الجثة أنَّ نادية فقدَت بكارتها في تلك الليلة قُبَيل وفاتها بساعات. وأن الطلق كان من مسافة قريبة؛ إذ أحدث حرقًا بجلد نادية حول الجرح الذي مرَّت منه الرصاصة. وبذا ساعَد تقرير الطبيب الشرعي على تخفيف الحكم على محمود، إلى السجن المؤبَّد، بدلًا من الإعدام وهكذا انتهى جنون الحب.

الفصل الثاني

دولة الظلم ساعة

فاطمة شابة في الثامنة عشرة من عمرها على قدر لا بأس به من الجمال تُؤدِّي الصلاة في أوقاتها وتخاف ربها في جميع تصرفاتها وسلوكها. مات أبوها وهي في السنة الثالثة الثانوية ولم يترك لأسرته المُكوَّنة من زوجته وفاطمة وثلاثة أولاد صغار في المرحلة الابتدائية من التعليم الأساسي، لم يترك لهم سوى مَعاش ضئيل لا يكاد يكفي القُوت الضروري؛ فاضْطُرَّت الزوجة، غير المتعلِّمة أنْ تعمل بِضْع ساعات كل يوم في تنظيف البيوت لقاء دُرَيهِمات قليلة تساعدها على تربية أولادها، وقضاء بعض لوازمهم البسيطة.

تقدَّمَت فاطمة لامتحان الشهادة الثانوية العامة فأكرمها الله بالنجاح، ولكن بمجموع لا يسمح لها بالالتحاق بأية كلية من كليات الجامعة، فحمدَتْ ربَّها على نعمته ورحمته، وقررت أنْ تنزل إلى ميدان العمل بالشهادة الثانوية كي تتمكن من مساعدة أمها في النهوض بنفقات الأسرة وتَنشِئة إخوتها الثلاثة.

نزلت فاطمة تَبحث عن عمل حتى حُفِيت قدماها، وبَلِي حذاؤها من كثرة المشي. لم تترك بابًا للعمل إلا طرقته، ولكن دون جدوى ... فلجأَت إلى إعلانات العمل الموجودة بالصُّحف. غير أنها كلها تشترط الإلمام التامَّ باللغة الإنجليزية وإجادة النَّسْخ على الآلة الكاتبة. هذا أقل ما تطلبه الإعلانات، ولكنها لم تيأس من رحمة الله وهي المؤمنة المتديِّنة، وقالت في نفسها: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)، صدق الله العظيم.

بعد أنْ داخت فاطمة من قراءة الإعلانات، لفَتَ نظرَها إعلان يقول صاحبه، إنه يريد «جليسة أطفال»، فعوَّلت على أنْ تطرق ذلك الباب وتُغامِر في القيام به، رغم امتعاضها من طبيعة العمل ذاته، وتأباه على نفسها. ولكن المُضطر يركب الصعب. وقالت في نفسها، مرة أخرى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

كتبت فاطمة في دفتر مذكراتها عنوان صاحب ذلك الإعلان، ورقم تليفونه، ولم تَتوانَ في التوجُّه إليه ... فاستقبلتها والدة الطفل «مراد» بالبشاشة والترحاب، وخصوصًا بعد أنْ علمتْ منها أنها حاصلة على الشهادة التوجيهية وأنَّ أُسرَتها بحاجة إلى مَن يساعدها. واتفقتْ معها على مُرتَّب معقول، فحمدت فاطمة ربها، غير أنَّ أم الطفل اشترطت عليها أنْ تحضر للإشراف على مراد في الساعة الثامنة صباحًا، وتستمر معه حتى السادسة مساءً. بما في ذلك أيام الجُمع والأعياد؛ أي إنها لا تأخذ أية راحة ولو لمدة يوم واحد في كل شهر ... فوافقتْ فاطمة بنفس راضية وهي تشكر المولى الرازق وتتلو في سرها بعض آيات الذكر الحكيم، وعوَّلت على أنْ تتفانى في عمَلِها وإرضاء مخدومتها بكافَّة الطُّرق، واضعة نُصْب عينيها الحديث الشريف: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أنْ يُتقِنَه.»

بدأت فاطمة عمَلَها حسب الشروط المتَّفَق عليها. فكان عيها أنْ ترعى الطفل وتُجالِسه، وتُشرِف على نظافته وارتداء ملابسه بنظام ليكون حسن الهندام، مقبول المنظر، وعلى تناوُله الوجبات في مواعيدها، مع مراعاة القواعد الصحية وغسل يديه قبل الأكل وبعده، وعلى مشربه، وتُداعِبه ويداعبها، وتقص عليه القَصص الديني، وتَبث في نفسه العادات والأخلاق اللتين توصِي بهما الشريعة الإسلامية، وأُعجِبَت فاطمة بمعامَلَة والدة مراد لها؛ إذ كانت تُعامِلها بكل احترام وأدب، وتراعي كرامتها كفتاة مُثقَّفة

اضطرَّتْها ظروف الحياة على قبول مثل هذا العمل المُضْني الذي لا راحة فيه.

اطمأنَّت فاطمة وشكرَت ربها على ما هي فيه من نعمة تُمكِّنها من مساعدة أسرتها المكوَّنة من خمسة أفراد فاجأهم الدهر بموت عائلهم في حادث سيارة. فعرفوا الجوع والحرمان وعيش الكَفاف. وتعذَّر على الأم أنْ تدير أُسرتها بذلك المعاش البسيط وما تأخذه من أجْر نظير القيام ببعض الأعمال الحقيرة في البيوت.

أحبَّتْ فاطمة مرادًا كما لو كان أخاها الصغير، وأحبَّها مراد بدوره لما لقيه منها من رعاية وعناية وعَطف وخدمة ممتازة. كما أحبَّت أم مراد فاطمة؛ إذ لاحظَت السعادة بادية على مُحيَّا ابنها وارتياحه إلى مُربِّيته هذه.

كان يتردد على منزل سيدتها، أخو تلك السيدة وهو الشاب محسن، الطالب بالجامعة، ولاحظَت فاطمة حِرْص محسن على المجيء في الأوقات التي تكون فيها رَبَّة البيت وزوجها في عملِهما خارج البيت؛ إذ كانت أم مراد تعمل في وظيفة مرموقة بشركة خاصة. وهذا هو ما حدَا بها إلى أنْ تستعين بفاطمة لتجالس ابنها مُرادًا إبَّان غيابها هي وزوجها في عمليهما.

تظاهَر محسن بأنه يحب ابن أخته مرادًا، حبًّا جمًّا، بينما هو في الواقع يهدف إلى كَسْب ود قلب فاطمة التي وجد فيها ضالَّته المنشودة ليتخذها معشوقة يتمتع بجسمها كما يحلو له. فهي صغيرة السن، حلوة الوجه، فاتنة التقاطيع، عذبة الابتسامة ليس فيها أي عيب بدني، بل «تبارك الخلَّاق فيما خلق.» وظنَّها صيدًا سهلًا تنقاد إلى نزواته وتطيع ما يطلبه منها وتلبِّي أغراضه لا سيما وأنها ساذجة عديمة الخبرة والحنكة ... فألقى الطعم، وأحس أنَّ الصيد سيتناوله فيقع في القفص. ولكن هيهات ... خاب ظنه،

وفشل أمله. فرغم فقر هذه الفتاة وحاجتها، فهي متمسِّكة بعفافها وقواعد دينها، متخذةً مثلَها الأعلى قول باحثة البادية:

إنَّ الفتاة حديقة وعفافها كالماء موفور عليه بقاؤها

هيهات هيهات أنْ تستجيب فاطمة لنزوات محسن، ولكنه مع ذلك، بدأ يطاردها، وينتظرها كل يوم تقريبًا، عند انصرافها من بيت أخته عائدةً إلى بيتها لتنضم إلى أمها وإخوتها الثلاثة، فترعى مصالحهم وتقوم بما يلزمهم من خدمة ومن نفقات، غير أنَّ فاطمة كانت تصد ذلك السادر الماجِن، وتهدده بإبلاغ البوليس كي يتخذ ما يراه من إجراءات لحمايتها من معاكساته ... وكم من مرة حاول احتضانها وتقبيلها بالقوة وهي تداعب مرادًا في حجرته الخاصة المنعزلة بعيدًا عن بقية حجرات المنزل، فصفعته وأبعدته عنها بكل ما أوتيت من قوة.

لاحظت والدة مراد ارتباك أخيها محسن كلما حضر لزيارتها وظهرت فاطمة أمامه؛ ذلك لأنه كان يترك أخته ويذهب إلى حجرة مُراد بحجة مداعبته إياه. في حين أنه كان ينتهز كل فرصة ليثبت لفاطمة غرامه ولواعِج قلبه نحوها، ويمنِّيها بالأماني العريضة ... بيد أنَّ فاطمة كانت تعلم يقينًا أنَّ هدفه شرير دنيء ... فمحسن ما زال طالبًا في الجامعة، وأنها ليست من مستواه الاجتماعي ولا العائلي أو الثقافي. كما أنها لا تحس نحوه بأية عاطفة غرامية. وتُدرك الحقيقة السافرة أنَّ كل أقوال محسن وغزله فيها، من نوع الكلام المعسول الذي لا يكلف المرء شيئًا، ولن تشعر القلوب بما يقوله اللسان الكذوب.

تكررت محاولات محسن مع فاطمة، عسى أنْ تستجيب لأغراضه، وتلبِّي كافة طلباته، ولكنه وجدها مستقيمة ليست من الفتيات اللعوب، وجادة في موقفها حياله. وأخيرًا هدَّدتْه بأنْ تشكوه إلى أخته أم مراد لتمنعه مغازلتها … مَن قال الألف ينطق بعدها بالباء … ألم تصفعه بقوة عندما حاول تقبيلها؟ إذن، فالخطوة التالية ستكون أشد وأنكى … وإذ لم يجد فائدة من كل محاولاته، أضمر في نفسه أمرًا، وصمم على تنفيذه مَهما يكلفه.

ذات يوم، انتهز محسن فرصة انشغال فاطمة في إعداد الطعام لمراد، ودس في حقيبة يدها ساعة أخته المرصعة بالجواهر واليواقيت … ثم ذهب إلى أخته يسألها عن الساعة، فاكتشفت أخته اختفاء ساعتها بعد أنْ خلعتها من يدها منذ فترة قصيرة فحسب … أين اختفت هذه الساعة الثمينة، ولم يدخل بيتنا شخص غريب؟ لا بد أنْ تكون الساعة موجودة في مكان ما بالمنزل … أخذتها يد فَرْد منا.

أوحى محسن إلى أخته، أم مراد، بأنْ تفتش حقيبة يد فاطمة. فتردَّدَت هذه السيدة أولًا، ثم أقدمت على تفتيش الحقيبة، فإذا بالساعة داخلها. فنادت فاطمة واتهمتها بسرقة الساعة؛ إذ وجدتها في حقيبة يدها.

كانت هذه لحظة قاسية، أصابت فاطمة في مقتل … وأوحى محسن إلى أخته أنْ تبلغ البوليس كي يأتي ويقبض على هذه اللصة الخائنة … فبكت فاطمة بكاءً مرًّا، وأقسمَت بأغلظ الأيمان على أنها بريئة مما نُسِب إليها، ولا تعرف كيف وُضِعت هذه الساعة في حقيبتها … ولكن لا حياة لمن تنادي. أصرت والدة مراد على اتهامها فاطمة بسرقة ساعتها، وهدَّدَتها بإبلاغ البوليس ليقبض عليها ويودعها السجن.

وأخيرًا تحرَّكَت كوامن العطف في قلب والدة مراد؛ إذ كانت سيدة عريقة الأصل، شريفة المَحتِد، تخشى الله في كل أعمالها وتصرفاتها. وتعلم أنَّ فاطمة تعمل لتعول أسرتها، فاكتفَت بطردها من خدمتها كي لا تحطم مستقبلها لو أنها سلَّمَتها إلى البوليس بتهمة سرقة ساعتها الذهبية.

عادت فاطمة إلى بيتها، في ذلك اليوم، مبكرًا عن كل يوم سابق ... كان ذلك يومًا أسود بالنسبة لها. عادت مكتئبة حزينة، فدخلت حجرتها واستسلمت للبكاء الشديد من قسوة الظلم الصارخ الذي وقع عليها، ولكن أوحى إليها إيمانها بالله وبِعَدْله، بأنْ تقوم فتتوضأ وتصلي ركعتين لله وتطلب منه أنْ يُظهِر الحقيقة، ويعلن براءتها من السرقة، براءة الذئب من دم ابن يعقوب ... وهكذا فعلت وهي تثق بالعدل الإلهي.

في اليوم التالي، انتظر مراد حضور فاطمة كعادتها، ولكنها لم تحضر ... فذهب إلى أمه وسأل عن سبب عدم مجيء فاطمة التي يحبها من كل قلبه. فقالت الأم: فاطمة لصة، يا مراد؛ لذا طردناها من خدمتنا وسنجيء لك بمُربِّية أفضل منها؛ لأن فاطمة سرقَتْ ساعتي وخبَّأتْها في حقيبة يدها.

فقال الطفل: كلا، يا أماه: فاطمة لم تسرق الساعة، فالذي وضعها في حقيبة يدها هو خالي محسن. رأيتُه بنفسي وبعيني هاتين، يفتح الحقيبة، ويضع فيها الساعة.

فقالت الأم: ولماذا وضع أخي محسن الساعة في حقيبة يد فاطمة؟ وأين كانت هي عندما فتح حقيبتها ووضع فيها الساعة؟

فقال مراد: أراد خالي أنْ ينتقم من فاطمة؛ لأنه حاول أنْ يُقبِّلها بالقوة، فلكَمَته في صدره وأبعدَتْه عنها أمامي ... وقد وضع الساعة في الحقيبة

أمامي أيضًا عندما كانت فاطمة تُعِد لي طعام الغداء ... هذا هو عين ما حدث، يا أمي، وفاطمة بريئة.

راجعت والدة مراد نفسها، وعرفت أنَّ ابنها يقول الحقيقة. وسألت نفسها: لماذا كثر مجيء محسن لزيارتنا، كل يوم تقريبًا، منذ أنْ جاءت عندنا فاطمة. وكان قبل ذلك لا يزورنا إلا لِمَامًا؟ ولماذا يتعمد المجيء، وأنا وزوجي خارج البيت في العمل؟ ما يقوله مراد صحيح وأنا لم أفطن إلى هذه الحقيقة، فانْسَقتُ وراء كلامه واتهامه تلك البُنية البريئة فقالت: هل تحب فاطمة، يا مراد؟

– نعم، يا أمي، وهي تحبني أيضًا.

– أتريد أنْ أحضر لك فاطمة؟

– نعم، وبسرعة، يا أماه.

– إذن، فستأتي إليك فاطمة غدًا، إنْ شاء الله.

ذهبت أم مراد إلى بيت فاطمة، فاعتذرَتْ لها وطلبَت منها أنْ تسامحها على اتهامها إيَّاها ظلمًا وعدوانًا، وأخبرَتْها بأن الله — جَلَّت قُدْرته — قد أظهر الحقيقة على لسان مراد. وقالت: ومكافأة لكِ على براءتك وشَرَفك وعِفَّتك وتكفيرًا عن ظلمي إيَّاك، تقَبَّلي مني هذا المبلغ، وأرجو أنْ تسامحيني من أعماق قلبك.

قالت هذا وأعطَتْها ألف جنيه عن طيب خاطر. فعرَفت فاطمة أنَّ هذا تدبير من السميع العليم كي تصلح حال أسرتها وبيتها. فشكرَتْ أم مراد، وانتظمَتْ في ذهابها إلى مراد كالمعتاد، كل يوم.

أما محسن، فلَمَّا ذهب إلى بيت أخته ليعرف ما تم، بصقَت أخته في وجهه وقالت: اخرُج من هنا أيها السافل النجس، ولا تفكر في أنْ تدخل بيتنا مرة أخرى. لست أخي ولا أعرفك ... تَتهِم فتاة شريفة وتدبر لها مكيدة؛ لأنها منعَتْك أغراضك الدنيئة، يا فاجر ... ثم تفعل هذا أمام طفل صغير كي يشب على الأفعال الحرام، والطفل يُقلِّد الكبار في كل شيء ... أتريد أنْ تفسد أخلاقه منذ صغره؟ ومن شبَّ على شيء شاب عليه ... اخرُج من هنا ولا تحضر إلى بيتنا بعد الآن.

وهكذا خرج محسن ذليلًا مطرودًا شَرَ طِرْدَة.

تقيم في البيت المجاوِر لبيت محسن إحدى زميلاته بالجامعة، وكم من مرة ابتسمَت له لتجعله صديقها وهو يُعرض عنها. غير أنها لم تيأس من حبه، فابتسمَت له كعادتها، ولَشَد ما كانت دهشتها عندما ابتسم لها ومَد إليها يده فسلَّم عليها.

نشأت الصداقة بين سعاد ومحسن، وتطوَّرت إلى حب. فكانا يلتقيان يوميًّا في إحدى الحدائق، يتطارحان عبارات الغرام ويُوسع كل منهما الآخر عناقًا وتقبيلًا ... وهكذا، أخذَت سُعاد تتأخر عن العودة إلى بيتها إلى وقت متأخر من الليل، وإذا سألتها أمها عن ذلك التأخير، قالت إنها تستذكر الدروس مع إحدى زميلاتها. فتظاهرَت الأم بتصديق ابنتها، وقد «لعب الفأر في عبِّها.» وراودتها الشكوك والرِّيَب، فأسرَّت بذلك إلى ابنها الأكبر، وصارحته بما يجول في خاطرها.

عهد الابن إلى أحد أصدقائه المُخلِصين، الذي لا تعرفه سعاد، بأن يراقِبها من بعيد منذ خروجها من الجامعة إلى أنْ تعود إلى بيتها ليلًا.

قام ذلك الصديق الوفي بما كُلِّف به خير قيام، وعاد إلى خالد شقيق سعاد يخبره بأنه رآها تخرج مع شاب خليع من زملائها بالجامعة، فيذهبان إلى حديقة عامة، حددها له. ويجلسان متجاوِرَين يتحدثان إلى أنْ يخيم الظلام على الكون، فيتعانقان ويقبِّل كل منهما الآخر، ثم يعودان أدراجهما، وذلك الشاب يسكن في البيت الملاصِق لبيت خالد، فعرفه خالد على الفور، وأخبر أمه بنتيجة المراقَبة.

تشاوَر خالد مع أمه، فقرَّرَا استئجار اثنين من الفتوات ليضرِبا ذلك الجار.

جلست سعاد مع محسن كعادتهما في تلك الحديقة، وما إنْ بدآ يتعانقان حتى انهالت العِصِي على محسن، فَفرَّت سعاد إلى بيتها حيث استقبلها أخوها الأكبر وأمها بالضرب المبرح الذي أرقدها في الفراش عدة أيام، ومنعاها الخروج من البيت، والذهاب إلى الجامعة.

أما محسن فقد أوقعه حظُّه العاثر في أيدي هذين الشقِيَّين، فأشبعاه ضربًا بالعِصِي، وسلَبَاه ملابسه بما فيها من نقود ولم يتركاه إلا بالقميص الداخلي والسروال، عاري الرأس، حافي القدمين. ومن شدة الضرب، كُسِرت ضلوعه وعظام كتفيه ... ولاذَ الشقيان بالفرار دون أنْ يضبطهما أحد.

أما محسن فعثر عليه حراس الحديقة بعد وقت طويل، فطلبَا له سيارة الإسعاف التي نقلته إلى المستشفى وهو على تلك الحال، وخرج من المستشفى قعيدًا، لا يستطيع الحركة، جزاءً وفاقًا لسوء فِعاله، وإن ربك لبالمرصاد ... (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ).

الفصل الثالث

من الحريات ما يقتل

نازك فتاة في العشرين من عمرها، حَبَاها الخلَّاق المبدِع بجمال في كافة تقاطيع وجهها وجسمها: ذات عينين حَوراوَيْن واسعتين، ووجه مستدير ناصع البياض كأنه البدر في ليلة التمام، وأنْف صغير مستقيم، وفَم ضيِّق لا يكاد يتَّسع لإصبع ذي شفتين رفيعتين ياقوتيتين تُفتران عن صَفَّين من اللؤلؤ المنظوم، تَبارَك مَن نَظمَهما، وعلاوةً على ذلك يتوسط ذقنها الساحر طابِع حُسْن يأخذ بمجامع الألباب. أما جِيدُها فتَغار منه نفرتيتي التي يُضرَب بجمال جِيدِها المَثَل. ويبرز من صدرها الفاتن نَهْدَان مُتوسِّطَا الحَجْم. وهي ممشوقة القَوام المتناسق الأعضاء، ليست بالطويلة الفارعة، ولا بالقصيرة. وشَعْرها سَبْط ناعم يصل إلى منتصف ظهرها كأنه أسلاك من الذهب تنعكس عليه أشعة الشمس وأنوار المصابيح، وتجيد تصفيفه بطريقة تَخلب الأفئدة، وتدير نحوها رءوس الرجال. وبالجملة، كل ما فيها مليح، وترتدي أزهى الملابس الجميلة الضيقة التي تُبدِي جميع تقاطيع جسمها، وتعتني بمكياجها بفن أصيل؛ وبذا تجذِب نحوها أنظار الرائيين من الجنسين، جنس يتمنَّى التمتُّع بهذا الجمال الفتَّان، وجنس يَغار منه ويحسد صاحبته، ولكنها رغم كل هذه النعم التي تراكمت عليها، لا تهتم بدروسها.

رسبت نازك في امتحان الشهادة الثانوية العامة ثلاث مرات، ثم ابتسم لها الحظ فنجحَت في المرة الرابعة بمجموع يُؤهِّلها لدخول الجامعة في الكلية التي تختارها. فكانت فرحة والديها عظيمة فانهالا عليها تقبيلًا، واشترى لها

أبوها فستانًا جديدًا جذاب المنظر، وحذاء جديدًا من أرقى طراز، وزَيَّن معصمها بساعة ذهبية ثمينة. وهكذا أحسَّت نازك بالسعادة تسري في أحنائها، وأعدَّت نفسها لدخول الجامعة بروح جديدة، وعزيمة ثابتة، وقرَّرت في نفسها أنْ تعطي الدروس حقَّها من الاستذكار فلا يتكرَّر ما حدث في السنوات الثلاث السابقة.

التحقَت نازك بالكلية التي تهواها، وأقبلَت عليها بروح ثابتة، بعد أنْ قبَّلت أمها وأباها الذي اشترى لها سيارة جميلة المنظر تذهب بها إلى الجامعة، مكافأةً لها على جِدها واجتهادها ونجاحها، ولكي لا يعاكسها الشُّبان إذا سارت إلى الجامعة على قدميها أو ركبَت الأوتوبيس؛ إذ يعلم تمامًا مقدار جمال ابنته وفتنتها وجاذبيتها، وربما أوقَعَها شاب وسيم، فتهتَم به وتُهمِل محاضراتها ودروسها.

استقبل الحرم الجامعي نازك بفتور ما بعده فتور؛ فليس جديدًا عليه أنْ تتردد فيه فتاة جديدة خارقة الجمال مثل نازك، فطالما استقبل المئات بل الألوف من الطالبات الجديدات، منهن الجميلة، ومنهن الدميمة، ومنهن من كانت بين بين، وهو دائمًا عامر بالفتيات من مختلف الأشكال والألوان، وشتَّى الأنحاء والبيئات.

عرفت نازك طريق الكافيتريا من أول يوم ولَجَت فيه أبواب الجامعة، لقضاء بعض ساعات النهار الخالية من المحاضَرات والمحاضِرين. فأعجبها الجو الجديد، واستمرْأَت الحرية المُطلَقة التي تتمتع بها الطالبة الجامعية، وحياة الاختلاط بين الجنسين. وعوَّلت على أنْ تجعل من نفسها قِبْلة أنظار الشُّبان ومَحط أهوائهم، لا سيما وهي تعرف حَقَّ المعرفة أنها فِتنة للعيون سواء للطلبة أو للطالبات.

هكذا وجدَت نازك في الكافيتريا ميدانًا يسهل لها ممارسة نشاطها الشيطاني الذي اعتزمَت أنْ تَتخِذه الآن بعد أنْ ظل كامنًا بين جنباتها طوال السنوات الثلاث وهي تلعق مُرَّ الرُّسوب وكَبْت الحرية، وسمعت طوالها أقسى عبارات التوبيخ والتقريع والتبكيت.

استساغَت نازك جمال الدفء الذي أحاطها به زملاؤها الطلاب، وسرعان ما أصبحت أشهر من نار على عَلَم في دنيا الحرية الصارخة، بين الطلبة والطالبات، والفتاة المرموقة التي يتسابق الجميع إلى كَسْب وُدِّها وصداقتها، والانضمام إلى صحبتها ومجلسها، ليتبادلوا معها النكات والضحكات، خصوصًا وأنها ذات ابتسامة حلوة يزينها ويزيد في حلاوتها طابِع الحُسْن المُتربِّع وسط ذقنها.

نَسِيَت نازك ما سبق أنْ عوَّلت عليه من الاهتمام بتحصيل العلوم الجامعية، وزين لها الشيطان حياة اللهو والإغراء، فوضعت في ذهنها أنْ تنتهز فرصة شبابها وريعان صباها في التمتع بهما، وجعلَت دينها الجديد «خفها تعوم، بالا جامعة بالا علوم». وماذا تنفعها العلوم، وهي الفتاة الجميلة الثَّرية، التي يتهافَت كل شابٍّ على أنْ يكون له منها ولد، مهما يكن السبيل، ومهما تكن الوسيلة. وهكذا أهملَتْ نازك محاضراتها، وغدَا كل هُمِّها أنْ تقضي اليوم كله في الكافيتريا، تتسامر مع هذا وذاك، وإلى الجحيم تلك الرسالة الجامعية، وذلك الغرض اللذين تخرج من أجلهما من بيتها كل صباح بحجة الذهاب إلى الكلية ودخول قاعة المحاضرات وسماع ما يُلقِّنه المحاضرون.

وإنَّا لنوجه اللوم الشديد إلى والديها، وعلى الأخص إلى أبيها لعدم مراقبتهما ابنتهما المستهترة هذه، والاطلاع كل يوم على كشاكيل

المحاضرات التي تعود بها إلى البيت، والإشراف على استذكارها دروسها؛ لئلا تعود إلى الكسل وعاقبة الرسوب ... إنها وديعة من الله لديهما، ويجب عليهما الاهتمام بصالحها، وتربيتها التربية القويمة، ومباشرة معرفة سلوكها وسَيْرِها في الجامعة أولًا بأول، وقد لُقِّنَا درسًا من سنوات الرسوب الثلاث.

إلهام طالبة زميلة لنازك، تتمتع بجمال لا بأس به، وبرقة كثيرة، وجاذبية وسحر عظيمين، غير أنها لم تحسن الانتفاع بهذه الميزات، واستمرأت الوضع الذي رسمته نازك لنفسها، فزاملتها ... وأصبحتا لا تفترقان طيلة اليوم الجامعي. فإن حدث وشاهدْتَ نازك، فلا بد أنْ تشاهد إلهام معها جالستين سويًّا، ومِن حولهما فئة غير قليلة من الطلبة المُعجَبين بالجمال، والسادِرين في غَيِّهم، والمارِقين على الدراسة وما تتطلَّبه من قيود قاسية، وتضحية بالمَلَذَّات، وبما تأمر به النفس الأمَّارة بالسوء.

صالِح زميل لإلهام في المُدرَّج ... أُعجِب بجمالها وخفة ظِلِّها ولطافتها، فأحبها من أعماق قلبه وقرر بينه وبين نفسه أنْ تكون زوجته بعد تخرجهما؛ لذا، بَخَعَه الحزْن عندما أبصر إلهام وقد انخرطت في طريق نازك، وتَغيَّر سَيرُها، وانقطعَت عن سماع المحاضَرات ورابطت في الكافيتريا مع صديقتها التي اختارتها بنفسها، ومن حولها جماعة الطلبة الفاشلين الذين يَرَوْن في وجودهم مع نازك وإلهام، سعادة تفوق كل سعادة؛ فيحظون بالتدخين والتنكيت والضحك، واحتساء أقداح القهوة والشاي ومَضْغ اللبان، ومشاهَدة الجمال الفذ، والاستمتاع بالحديث العذب والابتسامات الحلوة. بئس ما اختاروا لأنفسهم، وبئس ما ينتظرهم من مصير.

شرع صالح، بادئ ذي بدء، يُسْدي النصح إلى إلهام، حبيبته الغالية، ومحط آماله في أنْ تكون زوجته، وبيَّن لها عاقبة ما هي مُقْدِمة عليه

بمصاحبة نازك السادِرة الماجنة ... لكنه كان كمن يضرب في حديد بارد. فضربت بنصائحه عُرْض الحائط، ورفضت أنْ تترك صحبة نازك ومجموعتها من الطلبة الفاشلين.

احتدَم الأمر بين صالِح وإلهام، وتعدَّدت المشاجَرات بينهما فلا يسمع منها إلا قولها: أنا حرة ... أَفعلُ ما يروقني ... لستَ وصيًّا عليَّ، ولستُ عبدةً لديك لمجرد أنك تقول إنك تحبني، فيقول لها: الكل يشمئز من سلوك نازك، ومصاحبتك إيَّاها تجعلك مثلها، ألم تقرئي قول أبي العلاء المعري:

أعْدَى مِن الثُّؤباء صَداقةُ السُّفَهاء

والثُّؤباء معناها المتثائبون. وأنا أحبك يا إلهام حبًّا شريفًا ينتهي بالزواج، ولا أريد أنْ يكون مَسلك زوجتي على هذا النحو.

فقالت إلهام: ومن أدراك أنني أرضَى بك زوجًا، أيها السنكوح الحقير؟! لن يتمتع بجمالي ويتزوجني إلا الشاب المليح الوجه، الثري ثراءً واسعًا، يبني لي قصرًا، ويُعَيِّن لي الوصيفات والخدم، ولا يجعلني أفعل شيئًا سوى الجلوس أمامه ليشاهد جمالي ويملأ عينيه من مفاتن جسمي ... أنا فتاة عصرية متحرِّرة، وأحب نازك وأهوى صُحبتها وأنتشي لضحكاتها وللحرية الفائقة التي تعيش فيها؛ إنها في نظري المثل الأعلى للطالبة الجامعية المتحرِّرة، المؤمِنة بالمساواة بين الفتى والفتاة، ولسنا من عصر ما قبل التاريخ.

فشل صالح في تقويم حبيبته التي مَلكتْ عليه لُبَّه وفؤاده، وقرَّر أنْ يفعل شيئًا ينقذ به محبوبته من المصير القاتم الذي ينتظرها من صحبة نازك.

انضم صالح إلى طائفة الشُّبان الملتفين حول نازك، وعوَّل على أنْ يلفت إليه نظر نازك، ويتملَّقها بمعسول الألفاظ عسى أنْ تحبه فيتظاهر بأنَّه يبادلها الحب وبذا يثير غيرة إلهام، ويوقع بينها وبين نازك.

نجح صالح في بث الوقيعة بين إلهام ونازك؛ فقد وجدت نازك صالحًا شابًّا يختلف عن بقية الطائفة الأخرى، فأظهرت له العطف والإعجاب والحب، وتركت غيره من قُدامى أصحابها. وكانت تصحبه معها في سيارتها في آخر النهار لتوصله إلى بيته. وأبدى لها صالح، بدوره، حبه إيَّاها وعزمه على الزواج منها عندما يحين الأوان.

وجدت إلهام نفسها وحيدة مع أولئك الشُّبان الفاشلِين، بينما انفردت نازك بصالح وتوطَّدَت علاقة الحب بينهما، فدبَّت نيران الغيرة في نفس إلهام وامتلأ قلبها بالغيظ نحو نازك، واعتبرَتْها سارقة لقلب الشَّاب الجامعي الذي أحبها كل الحب رغم استهتارها به والإساءة إليه لكي تمضي في صحبة نازك.

وقع العراك بين نازك وإلهام، وتبادلت الفتاتان الشتائم والسباب بأقذع الألفاظ، وتماسَكَتا بالأيدي، وتضارَبَتا بالأحذية، وحدثت القطيعة بينهما.

يقول الشاعر الحكيم:

احذر عدوك مرة   واحذر صديقك ألف مرَّة
فلربما انقلب الصد   يق فكان أعلم بالمضرَّة

كانت إلهام تعلم جميع أسرار نازك، وتعلم أنها تحب رجل أعمال ثريًّا ويحبها، ويقضيان معًا بعض الوقت في شقته ... ورغم حبها صالحًا، فما زالت تذهب إلى ذلك الثري، الذي أغدق عليها الهدايا من المجوهرات الغالية

والأموال الكثيرة. فعزمت إلهام على الانتقام من نازك، انتقامًا يقضي عليها قضاءً مبرمًا. وعندئذٍ تذهب إلهام إلى صالح فتعتذر إليه عمَّا بَدَر منها، وتخبره بأنها تحبه وستسير حسب أمره وحكمه، وتتوسل إليه أنْ ينسى ما تفوَّهت به في طيشها، وعفا الله عمَّا سلف.

أرسلت إلهام خطابًا إلى بوليس الآداب تخبره بما يدور بين نازك ورجل الأعمال. وذكرت عنوان شقة ذلك الثري، وحدَّدَت الساعات التي يختليان معًا فيها، في يوم الجمعة من كل أسبوع.

تسلَّم بوليس الآداب هذه الرسالة، فأيقن أنها مكيدة، لا سيما وأن الخطاب غُفْل من الإمضاء. ولكنه لم يترك الفرصة تضيع من يده، فربما كان البلاغ حقيقيًّا، فأخذ يراقب تلك الشقة في الوقت الذي حددته الرسالة، رغم أنَّ يوم الجمعة هو عطلة جميع المصالح، ومنها بوليس الآداب.

أسفرت المراقَبة عن صحة ما جاء بالرسالة، فاستصدر البوليس أمرًا من النيابة بمداهمة الشقة التي يختلي فيها رجل الأعمال بنازك، وعندما دخل العاشقان الشقة، واختليَا معًا فترة قصيرة، إذا بالبوليس يكسر الباب وينقضُّ عليهما وهُما شبه عاريين فقبض على رجل الأعمال، ولكن نازك تمكَّنَت من التسلُّل وألقَت بنفسها من الشُّرفة. وكانت الشقة في الدور العاشر من عمارة شاهقة، فسقطت نازك على الأرض جثة هامدة.

وهكذا: «من الحرية ما يقتل».

الفصل الرابع

فرحة ما تمَّت

حسام موظَّف بسيط كل مؤهلاته شهادة الدراسة الثانوية، مات أبوه وترك له ثلاثة إخوة في مختلف مراحل التعليم، وكذلك أمه، ولم يترك لهم أية مدخرات؛ لذا كان على حسام أنْ يتكفل بنفقات أسرته من مرتبه الذي لا يكاد يكفي إيجار الشقة التي يقيمون فيها، والقوت الضروري لخمسة أفواه.

كان لا بد لإخوته الثلاثة من أنْ يتمُّوا تعليمهم وقد بدءُوه. ولكن من أين يحصل حسام على أثمان الكتب اللازمة لهم، علاوة على الملابس والمواصلات وما إلى ذلك؟ فتقدمت أمه بطلب معاش السادات كي يستمر أولادها في مدارسهم. وبعد الكثير من الإجراءات المُعقَّدة والمُضنِية، في الوقت ذاته، قرر ذوو الشأن معاشًا لهذه الأرملة، ولم يكن سوى بضعة جنيهات لا تسمن ولا تغني من جوع. ولكن كما يقول المثل: «نواية تسند الزير.» وبذا تمكَّن أولادها الثلاثة من مواصلة تعليمهم. وكان ابنها حسام يقتر على نفسه كي يرعى إخوته ويضطلع بسير الأمور في تلك الأسرة البائسة إلى أنْ يقضي الله أمره.

تسكن في بيت قريب من بيت حسام فتاة، تصغره بسنين معدودات … كانت «مُنى» هذه فاتنة جذابة الملامح والتقاطيع يراها حسام يوميًّا تقريبًا فيعجب بجمالها وبِسمُو أخلاقها، فَهامَ بحبها … والحب كما يعرف العُشَّاق، يجد طريقه من حيث لا يدري صاحبه. فصارح حسام منى بحبه إيَّاها حبًّا

استولى على كل حواسه وعقله ولُبِّه وجَنانه. وكان صادقًا في هذا التعبير؛ إذ شُغِف بها وحبها أكثر من حبه أمه، بل ونفسه. فلا يهنأ له بال إلا إذا رآها وتحدث إليها ... وشعرت منى بحب حسام يتعمق في قلبها وقد تأكَّدَت من أنه حب شريف سينتهي بالزواج والاستقرار في عش يضمهما معًا. فأبدَت له ما يختلج في قلبها من لواعج الحب، وما تتخيله من آمال لمستقبل سعيد، وأحلام بيت الزوجية.

وذات ليلة حاول حسام أنْ ينام، ولكن النوم استعصى عليه، فلم يغمض له جفن، ولم يستقر في الرقاد على أي جنب من جنبيه. وإنما كان يتقلب يمنةً ويسرةً عسى أنْ يغلبه النعاس، الذي أقسم على ألا يزوره في تلك الليلة الليلاء؛ لأن الأفكار كانت تشغل بالَه وتملأ رأسه ... ماذا عساه أنْ يفعل وقد تَوتَّر الجو بينه وبين محبوبته منى، قبل أنْ يذهب إلى بيته في المساء. فقد صَرَّحت له بأن الانتظار والتسويف كاد يقضيان على حبها إيَّاه، وينزعانه من قلبها ... ماذا وراء هذا الحب، وهي الفتاة الشريفة المتمسكة بدينها، إنْ كان حسام لا يتقدم لطلب يدها من أمها، ويحدد يومًا للزواج والاستقرار؟ فقد مات أبوها وهي ما زالت رضيعة في مهدها، فقامت أمها بتربيتها تربية قويمة على أساس من الحشمة والعفة والتدين، إلى أنْ صارت فتاة رائعة الفتنة والجمال، كَعَب نَهْداها ونَضِجت أنوثتها وغَدَت قِبْلَة الأنظار أينما ذهبت وحيثما أقامت.

قال: لا يمنعني طلب يدك، يا منى، إلا قِصَر ذات اليد.

قالت: ولماذا لا تخطبني؟ ليست الخطبة مشكلة، ولا تتطلب نفقات كثيرة.

قال: ليس عندي ما أخطبك به الآن، وأنت أدرى الناس بحالتي الحاضرة ... اصبري، وما صبركِ إلا بالله. فليس من المعقول أنْ أقدم لك «دبلة»

ليست من الذهب وإن كانت تبدو كالذهب!

قالت: الغاوي يفعل المستحيل. وإذا عزمت على أنْ تخطبني جاءك المال من عند الله، الذي يقول: «اجر يا عبد وأنا أجري معك.» كِلانا فقير، يا حسام، وإني لأعترف بأنك تعاني ماديًّا أكثر من معاناتي، من حيث الدخل والمسئوليات.

قال: أنتِ تعلمين أنَّ أبي مات تاركًا لي أسرة من خمسة أفراد، ثلاثة منهم بالمدارس ومُرتَّبي لا يتبقَّى منه أي شيء في آخر الشهر ... أما أنتِ، يا منى، فابنة وحيدة تعيشين مع أمكِ التي تعمل، ويأتيها معاش عن أبيكِ، بينما أمي لا تعمل ومعاش السادات الذي تحصل عليه في كل شهر عبارة عن مبلغ ضئيل.

قالت: إذن، فلا بد لي من أنْ أنتظر عشر سنوات حتى يكبر إخوتك الصغار ويتخرجوا ويعملوا ... مطلوب مني أنْ أظل عانسًا طيلة هذه السنوات، وبعد ذلك تتقدم فتطلب يدي. وربما خطفتك منِّي فتاةٌ أخرى، والمرء لا يعلم الغيب، ولا ما يخبئه له القدر ... كلَّا، يا حسام ... أنت من هنا وأنا من هنا، ونحن في بداية سُلَّم الحياة.

قال: أمامي خمس سنوات على الأقل حتى أحقق الأمل الذي نصبو إليه.

قالت: إذًا، فمع السلامة مؤقتًا، يا حسام ... وأعدك بأنني لن أراك ولن تراني إلا بعد هذه السنين الخمسة، للسؤال عن صحتك الغالية وصحة والدتك الكريمة، وإخوتك المحروسين.

نزلت هذه الألفاظ على حسام كالسهام، فتألَّم لقسوتها، وهو يعلم أنَّ منى على حق في كل ما تفوَّهَت به ... وراح يلوم القدر الذي خلقه فقيرًا مكبَّلًا

بأسرة لا يد له فيها، وإنما وجد نفسه فجأة مسئولًا أمام الله وأمام ضميره وأمام المجتمع، عن كل فرد فيها بعد أنْ مات العائل، في عنفوان صحته وقوته؛ إذ صدمَته سيارة، فأَردَتْه قتيلًا.

بدأ الشيطان يسيطر على تفكير حسام المُشتَّت ويوسوس له.

أخذ حسام يتذَكَّر طفولته الحلوة التي عاشها مع منى في شارع واحد، وكيف كان يلعب معها في براءة وهو لا يفكر قط في أنه سيقع في غرامها يومًا ما، وكيف أَلِفَ رؤيتها طوال مدة التلمذة، فقد كانت أمه صديقة أمها وتتزاوران كثيرًا وهما في حي عابدين، وكانت الزيارة بينهما متواصلة لا تنقطع.

تذكر تلك الساعات التي كانا يجلسان فيها معًا يلعبان الورق، ويتراهنان في لعبة «الكومي» و«البَصْرَة» وكيف كانت تتهلل وتصفق عندما كانت تغلبه، فيتوسل إليها أنْ تتنازل عن الرهان، فإذا ما وافقت، قدم إليها بسكويتة مما تصنعه أمه، فتتقبلها منه وتأكلها في سعادة عارمة.

راحت الذكريات تتوالى في مخيلة حسام، فتذكر ذلك اليوم الذي رأى فيه غلامًا يعاكس منى، فانقضَّ عليه يصفعه. وتماسكا بالأيدي، فأخذ يكيل له اللكمات والركلات والروسيات. لكنه عانى بعد ذلك من ألم بسبب ورم حدث في رسخ يده اليمنى؛ إذ لوى الفتى يد حسام بكل قوته، فسقط بعدها على الأرض واتَّسخَت ملابسه، غير أنه نهض من على الأرض منتصرًا ظافرًا، فبصق على وجه الفتى وهدَّده بالضرب المبرح إنْ حدَّثَته نفسه بعد ذلك، أنْ يعاكس صديقته منى أو يتعرَّض لها بأي شكل من الأذى.

سرح خيال حسام في الماضي، فتذكر أول لقاء بينه وبين منى، حبيبته العزيزة ... كان في عصر يوم خميس، إذ جلسا على كورنيش النيل، بالقرب

من كوبري قصر النيل، واشترى لها كوزًا من الذرة المشوية، كانت كالعسل حلوة وطرية. أخذت تأكله على مهل وهي تتلذذ بطعم الذرة التي لم تذق مثل حلاوتها من قبل؛ إذ كانت أول هدية من حبيبها ... وبعد أن انتهت من تناوُل الذرة وهي تُعبِّر له عن طعمها الحلو، وعن كونها طازجة، اشترى لها «قرطاسًا» من الترمس، وراحَا يتسامران، ويتحدثان عن آمال المستقبل ويخططان له، تبعًا لتصاريف الأيام، وإمكانيات أسرتها المحدودة، وأسرته الكبيرة بأفرادها العديدين. وكان عزاؤها أنَّ كليهما يتيم من ناحية الأب. وهذا هو أقوى ما يجمعهما معًا؛ إذ حُرما حنان الأب ورعايته. ومع ذلك، شكرًا الله على أنه لم يحرمهما نعمة حنان الأم وعطفها الذي لا حدود له.

أحسَّ حسام بأن الدنيا قد ظلمته وسلبته حنان الأب ومساعدته. فلو كان أبوه حيًّا، لاضطلع هو بموضوع زواج ابنه بمن يهواها، من جميع نواحيه، ولعجَّل بالزواج وقام بالنفقات. ولكن هكذا إرادة الله جَلَّت حكمته: «ولو علمتم الغيب لاخترتم الواقع.» والإنسان مُصَيَّر لا مُخَيَّر. وها هي الدنيا تسلبه اليوم حب معشوقته التي عوَّل على أنْ يتخذها شريكة حياته، وأم أولاده، ومن تقف إلى جانبه وسط صروف الدهر ... وهكذا تضاعفت الغُصَّة في قلبه. وانتهى تفكيره السقيم، إلى أنَّ الفقر وضيق ذات اليد، هما سبب عزوف منى عنه.

قرر حسام، ووضع في ذهنه أنْ يأتي بالمال من أي مصدر، حتى ولو كان مصدر غير شريف.

قال في نفسه: لماذا يملك بعض الناس عدة ملايين من الجنيهات. ويملكون العمارات الشاهقة، وينفقون الأموال بغير حساب، بينما لا يجد غيرهم ما يقتات به أو يصلح به أموره ... هذا ظلم ... وكما قال المنفلوطي:

«ما بَخِلَت السماء بمائها، ولا ضَنَّت الأرض بخيراتها، بل حسد الغنيُّ الفقيرَ عليهما، فاحتجَزَهما دونه.» لا بد أنْ يُقاسِم حسام الغني خيراته، ويسلبه بعض ما يمتلك. فاحترف سرقة السيارات الفارهة، وتغيير معالمها وأرقامها وأرقام محركاتها ثم بيعها. وبذلك يحصل على الألوف من الجنيهات.

بدأت الأموال تجري بين يدي حسام، فتقدم لخطبة منى، وقدم لها شبكة ثمينة أذهلت منى نفسها، فسألته من أين جاء بكل تلك الأموال، فأجاب بأنها تأتيه عن طريق العمل. غير أنها لم تصدقه، وترددت في قبول هذه الشبكة، وإن قبلت مبدئيًّا فكرة الخطوبة التي طالما حثته عليها.

أقام حسام حفل الخطوبة على نفقته الخاصة، فوُضِعَت الزينات داخل بيت منى وخارجه، وأُضِيئَت واجهاته بالمصابيح الكهربية الملونة. ومُدَّت مائدة فخمة عليها كل ما لذَّ وطاب، من طعام وشراب. وبذا أدخل السرور على نفس منى وأمها، وعلى نفس أمه هو وإخوته، وحدد يومًا قريبًا للزفاف.

ذات صباح، أمسكت منى بصحيفة الأهرام، فهالها أنْ أبصرت صورة حسام مكبلًا بالأصفاد. فقرأت الخبر، فإذا البوليس يقبض على حسام وهو يحاول سرقة سيارة ... فطوت الصحيفة واستسلمت للبكاء، وقالت بصوت حزين: «يا فرحة ما تمت.» وخلعت الدبلة والشبكة وألقَت بهما عُرْض الحائط.

الفصل الخامس

وفاء والوفاء

أحبَّها من أول نظرة، واعتَرف بأن حُبَّه إيَّاها هو الحب الصحيح القوي؛ إذ كان حبًّا نابعًا من القلب عند أعماقه ومتغلغِلًا في كافة أحناء الجسم. ومع ذلك كان حبًّا شريفًا لغرض شريف سامٍ، لم يقترب منه الشيطان أو تعبث به الأفكار الشريرة، وقد عوَّل على أنْ يكون لها وتكون له مَهما يعترض طريقه أي عارض. لا سيما وأنها كانت بالمرحلة الثانوية، ولا يُعْقَل أنْ تكون قد عرفت الحب قبل ذلك، أو ذاقَت طَعْمه، أو حتى سمعت عنه، ولكنها لم تمارِسْه في حياتها.

أعجَبه فيها رقَّتها وحلاوتها وجمالها الفذ، وابتسامتها العذبة، وسماحة طلعتها، وملاحة تقاطيع وجهها، وبريق عينيها النَّجلاوَين الواسعتين الساحرتين، ودِقة أنفها، وضيق فَمِها، وحُمرة شفتيها ووجنتيها دون استخدام أية أصباغ أو وسائل تجميل؛ فقد اكتفت بالجمال الموهوب، ولم تعمد إلى ذلك المجلوب، وعلاوة على ذلك كانت ذات قَدٍّ ممشوق وقوام معتدل، تجيد ارتداء ملابسها الثمينة كأنها عارضة أزياء، ولكن في احتشام ظاهر. تمشي في طريقها مع زميلاتها لا تلتفت يَمْنةً ولا يَسْرةً، تحمل حقيبة كُتبها في إحدى يديها، وحقيبتها الخاصة في يدها الأخرى. كانت بحق مثال العفة والاستقامة والطهارة.

كان يكفيه أنْ يراها كل صباح وهي في طريقها إلى المدرسة مُرتدِية الزِّي المدرسي. تخرج من بيتها وحدها، ثم لا تلبث أنْ تجد زميلاتها في نفس الطريق، فتنضم إليهن، ولكنها تبدو مُتميِّزة عنهنَّ بانسجام الملابس على جسمها المتناسق، وبكونِها لا تلتفتُ إلى الشُّبان العابثِين وهُم يوجهون إلى الفتيات عبارات الغزَل أو معاكستهن.

اعتاد سامي أنْ يسير على مسافة بعيدة من فتاته التي أحبها كل الحب، ينظر إليها في صمت دون أنْ يَنبِس ببنت شَفة، ولكنَّ عينيه كانتَا تتكلمان، وقلبه يرسل الموجات الكهربية إلى قلب تلك الطالبة البريئة، وكما يقولون: «من القلب إلى القلب رسول.» فترمقه في خَفَر وحياء دون أنْ تشعر بها زميلاتها السائرات معها، ومع ذلك لا تبخل عليه بابتسامة حلوة، هي كل ما ينشده في الدنيا، ليجد نفسه في سعادة ما بعدها سعادة.

عاش سامي عامًا دراسيًّا كاملًا، وهو في هذه السعادة العارمة التي لا تعادلها أية سعادة حتى ولو حصل على جميع كنوز الأرض.

ظل طوال مدة الإجازة الصيفية يحلم بهذه الغادة الحسناء التي ملَكت عقله وجنانه، واستحوذت على لُبِّه وأشجانه، وعبثًا حاول أنْ يتخلص من ابتسامتها العذبة التي كانت ترتسم أمام عينيه، ليل نهار، دون أنْ تخبو أو تفتر حلاوتها وطلاوتها، كان يرى تلك الابتسامة مرسومة في الفضاء على شفتي محبوبته المليحة ذات الوجه المشرق كأنه البدر في كامل نوره. ولكن دون جدوى … كانت ابتسامة في المخيلة، وهو يريدها حقيقية ويرى صاحبتها وهي ترسل تلك الابتسامة التي يخفق لها قلبه، وتتحرك نحوها عواطفه.

انتهت العطلة اللعينة المقيتة، وبدأ العام الدراسي الجديد، وظهرت «وفاء»، ولولا أنَّ إحدى صويحباتها نادتها باسمها، وسمعها سامي، لما

عرف اسمها أبدًا، ورن ذلك الاسم في أذن سامي كأنه لحن موسيقي شَجِي جميل، فبدَا له لائقًا بمحبوبته ... إنه اسم على مُسمًّى؛ إذ كانت «وفاء» عنوانًا للوفاء، وما كادت تراه وهي تتهادَى مع صديقاتها في الطريق إلى مدرستهن، حتى ابتسمت له تلك الابتسامة الخلابة، التي ظل ينتظرها طوال الشهور الأربعة للعُطلة الصيفية، فَخالَها دهرًا لا ينتهي ولا ينجلي.

أراد سامي أنْ يتحدث إلى وفاء، على حِدَة دون أنْ تكون معها زميلاتها، ليبثها لواعج قلبه، ويبوح إليها بحبه وهيامه وغرامه، فراقبها حتى عرف الطريق الذي تأتي منه قبل أنْ تنضم إلى الفتيات الأُخريات. وذات صباح، خرج من بيته مبكرًا، فوقف في منتصف ذلك الطريق، على الطَّوَار الأيمن، الذي لا بد أنْ تسير عليه إذا أقبلَت، فلما أبصرها قادمة من مسافة بعيدة على نفس ذلك الطَّوَار، سار نحوها، حتى صار على بضع خطوات منها، وتشجع وناداها باسمها:

– وفاء.

– نعم.

– أنا سامي. سامي عزيز.

– تشرَّفْنا، يا عزيزي!

– ابتسامتُكِ عذبة أَسرَتْنِي، يا وفائي!

– شكرًا يا صاحب السمو.

– مشيتكِ حلوة، كما أنكِ جذابة المنظر، خفيفة الظل، يا وفاء النيل!

– هذا بعض ما عندكم، يا صاحب المقام السامي، والخلق النبيل.

– إذن، فالشعور متبادَل بيننا، في وفاء وسمع، وسمو ووفاء، دون ما لف ولا عناء.

– هو كذلك، على ما أعتقد، يا أمير الأمراء!

– هل بوسعي أنْ أراكِ غدًا، يا مليكتي، ومليكة كل البلاد، وأحلى حسناء؟

– كل صباح، بإذن الله، يا منبع الإخلاص والوفاء!

دار هذا الحديث وأمثاله، بين هذين الحبيبين، فانصرف سامي وهو يكاد يطير من شدة الفرح؛ إذ وجد وفاء في غاية الرِّقة والدَّعَة وسماحة القلب ... بهره صدقها وصراحتها، وقبولها إيَّاه بغير ما مناقشة، ودون أنْ تعرف عنه أي شيء ... هذا لأن وفاء صادقة وأمينة مع نفسها ومع الآخرِين، لا تعرف المكر ولا الدهاء، ولا الكلام الكاذب المعسول الذي لا يخرج من القلب، بل كانت مع سامي في منتهى الصراحة.

لم ينم سامي تلك الليلة كلها، في انتظار الصباح أنْ يطرد الليل، ويحتل مكانه، كي يلقى معبودته وفاء، ويحظى بحديثها الشَّيِّق اللَّبِق، ولكنه قضى الليل يُعِد، ويُنمِّق الكلمات التي سيقولها لها، وهو يتوخَّى قواعد البلاغة والفلسفة والبديع، التي يجيدها كل الإجادة، ويسيطر عليها.

ما إنْ شق الفجر بضوئه الفضي حجب الظلام، حتى غادر سامي فِراشه وارتدى ملابسه، وخرج من داره دون أنْ يتناول طعام الإفطار، ليقابل من يتلهَّف إلى لقائها بفارغ الصبر، وجال بفكره، أنه بمجرَّد أنْ يلقاها، يُطوِّقها بذراعيه ويحتضنها ويُقبِّلها بحرارة، ولكنه راجَع نفسه؛ فأولًا: ليستْ وفاء زوجته بعقد شرعي، وكل هذه الأفعال ستكون حرامًا في حرام. وثانيًا: ربما

تنفر منه وفاء وتظنه راغبًا فيها لمجرد عبث الشباب؛ فزجر نفسه الأمَّارة بالسوء، وصمم على أنْ يكون معها طبيعيًّا، في منتهى الحشمة والرجولة والوقار.

طال انتظار سامي وهو واقف على الطَّوَار، أو هكذا صوَّرَت له لهفته إلى لقاء وفاء ... وأخيرًا جاءت الحبيبة المنشودة، فاقترب منها وقال بصوت منخفض: صباح الخير يا وفاء، يا مصدر كل خير ورخاء!

– صباحًا جميلًا، يا سامي.

– كيفما أصبحتِ، يا عزيزتي الفاتنة؟

– بخير ما دمت بخير.

– أيمكنني أنْ أجلس معك جلسة بريئة في مكان عام، مثل جروبي، وأتحدَّث إليكِ بصراحة في موضوع حبي إيَّاكِ، وما اعتزمتُه للمستقبل؟

– سأستشير أمي في هذا الأمر، وأرد عليك غدًا، إنْ شاء الله، في مثل هذا الوقت، وفي هذا المكان.

– شكرًا، يا وفاء، يا أوفى الأوفياء! وآمل في أنْ يكون لقاؤنا في وقت قريب.

– سأبذل كل ما في وسعي لأن يكون كذلك.

– شكرًا، وإلى اللقاء.

وقف سامي في صباح اليوم التالي قبل الميعاد بوقت طويل إلى أنْ أبصر وفاء قادمة تتبختر نحوه.

– صباح الخير، يا سامي.

– صباح الخير، يا وفاء. ما وراءكِ؟

– كل خير، إنْ شاء الله ... سنلتقي غدًا في جروبي مصر الجديدة، في الساعة الخامسة من مساء الغد، وستكون معي والدتي.

– حسنًا ... يُشرِّفني أنْ أتعرَّف بها.

– إذًا، إلى اللقاء.

جلس سامي في جروبي مصر الجديدة، في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي. وفي الخامسة تمامًا، أقبلت وفاء مع أمها، فسلَّمتا عليه وجلستا.

– أهلًا وسهلًا بوالدتي العزيزة، وبابنتها الوفية.

– أهلًا بك يا بني.

– أولًا، أنا مسيحي.

– ونحن كذلك مسيحيون، أنا ووفاء وأبوها، وهي وحيدتنا.

– هذا عظيم، لا بد أنَّ الله — جَلَّت مشيئته — قد أراد بي خيرًا ... أنا سامي عزيز غبريـال. مهندس معماري، والدي عزيز غبريـال، صاحب مزرعة لتربية الماشية، ومصنع لمستخرَجات الألبان، ويملك عدة عمارات بالقاهرة وبالجيزة وبمصر الجديدة. ونحن أسرة متدينة، نواظب على الصلاة والصوم وتقديم العشور لصاحب الآلاء والنعم، لي أخ أصغر مني خريج كلية الزراعة، يساعد أبي في إدارة المزرعة والمصنع، ولي أخت ما زالت في المرحلة الإعدادية.

– هذا عظيم «ووالد وفاء صاحب مصنع نسيج بشبرا الخيمة ولنا عمارات هنا بمصر الجديدة. ووفاء، كما قلت لك، وحيدتنا وقرة أعيننا.»

– أعجبتْنِي وفاء، وأعجبني خُلقها واستقامتها؛ لذا عوَّلتُ إنْ أراد الخالق إسعادي، أنْ أطلب يدها لتكون شريكة حياتي.

– وفاء ما زالت طالبة بالمرحلة الثانوية، ومن الأفضل أنْ تكمل تعليمها، وبعد ذلك تنظر في موضوع زواجها.

– يكفي ما تعلَّمَته حتى الآن؛ فلا حاجة بها إلى مزيد من التعليم؛ لأننا وأنتم، بحمد الله وشكره، أثرياء ومصيرها البقاء في منزلها لتدبير شئونه وشئون أولادها بمساعدة عدد من الخدم.

– على أية حال، أنا شخصيًّا موافِقة، ولكنَّ أباها هو الكل في الكل، وأرجو أنْ تتفضل بتشريفنا في منزلنا بعد الساعة السابعة من مساء الغد، لتتحدث مع والدها في هذا الشأن. وعنواننا: ٥ شارع السِّباق بجوار عمارة المريلاند بمصر الجديدة.

وهكذا طلب سامي يد وفاء، ووافق أبوها وتمَّت الخطوبة في حفل فخم بمنزل أبيها، مُدَّت فيه الموائد، وأُقيمت الزِّينات كأحسن ما تكون حفلات الخطوبة، وقدَّم سامي شَبْكة تليق بمقام أسرته، ومقام أسرة وفاء.

لم تطل مدة الخطوبة؛ إذ كان والد سامي قد خَصَّص له شقة بالعمارة التي يقيم فيها، وأثَّثها بأفخم الأثاث والمفروشات، وزوَّدها بجميع أحدث الأدوات المنزلية الموجودة في العالم كله، من كهربية وغير كهربية، واشترى له هدية الزواج سيارة مرسيدس من آخِر طراز، مكيَّفة الهواء، وبها تليفون لاسلكي وغيره من وسائل الراحة.

حُدِّد موعد الزفاف بعد الخطوبة بشهر واحد وعُملت الاستعدادات اللازمة لحفل الزفاف بمنزل أسرة سامي.

جلس المَدعُوُّون في الكنيسة، وقد وُزِّعت عليهم عُلب «الملبس» التي اشْتُرِيت من لندن من محل James Pascall العالمي، وانتظر سامي عند باب الكنيسة قدوم العروس في السيارة التي أهداه إيَّاها أبوه، ولكن طال الانتظار إلى ما بعد الموعد المحدَّد لعقد القِران ... وأخيرًا جاءت سيارة من السيارات التي كانت في موكب العروس، ونزل مَن فيها، وتقدموا من سامي بوجوه حزينة، يُعزُّونه في موت وفاء.

نزل هذا الخبر، على سامي، نزول الصاعقة، وقال: موت وفاء؟ وكيف ذلك؟

– سار الموكب تتقدَّمه السيارة المرسيدس التي بها العروس، وانطلقت زمارات الفرح والبهجة تملأ الجو ... وإذا بسيارة نقل مسرِعة جدًّا، قادمة من الاتجاه المضاد، فحطَّمت سيارة العروس، وقُتل سائقها والعروس والفتاتان المصاحبتان لها. وجاء البوليس، فقبض على سائق سيارة النقل.

لطم سامي خديه، وبكى عروسه بكاءً مُرًّا وسقط على الأرض مُغمًى عليه، وارتفع بكاء المُدعُوِّين وانقلب حفل الزفاف إلى جنازة مريرة.

لزم سامي داره بعد ذلك، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يمسك عليه الرمق. يبيت ليله يبكي ويندب حظه العاثر.

ذهب سامي، بعد ذلك بعدة أيام، إلى الكنيسة، وأقسم على الإنجيل بحضور اثنين من الكهنة، على أنَّه لن يقرب أية امرأة، ولن يتزوج طول حياته، بل يظل أعزب إلى أنْ يلقى ربه.

يخرج سامي من بيته كل صباح، فيتوجَّه إلى مدافن الأسرة، فيصلي أمام قبر وفاء، ويدعو لها بالرحمة، ثم يتوجَّه إلى عمله ... وكل مساء، يقف أمام صورتها، التي رسمها لها بالحجم الطبيعي، فيصلي ويدعو لها بالرحمة أيضًا.

دأب سامي على أنْ يضع إكليلًا من الورود الطبيعية البيضاء، على قبر وفاء، في كل عيد، بما في ذلك عيد ميلادها. وكذلك يفعل في كل مناسبة دينية أو عائلية.

هكذا التزم سامي بالوفاء لوفاء.

الفصل السادس

رحماك يا رب فأنتَ أرحم الراحمين

انصرف منتصِر من عمله حزين النفس، مهموم الخاطر، تتضارب الأفكار في رأسه. فقد كان بينه وبين السعادة التي ينشدها ويتوق إليها، أميال وأميال ... فكل شيء في حياته لا يَسُر، وكل شيء في عمله لا يرضي عدوًّا ولا حبيبًا ... كل شيء في أسرته مضطرب سقيم، والأهم من كل هذا وذاك، أنَّ جيبه يشكو الخلو ليل نهار.

لقد ماتت زوجة منتصِر، التي كانت تحمل عنه عبئًا ثقيلًا في تربية الأولاد والمساعدة في نفقات المَعيشة؛ إذ كانت موظَّفة في إحدى الشركات بمرتَّب يمكن أنْ يسهم في لوازم البيت والأولاد والحياة ... ماتت وتركَت له أربعة أولاد، أكبرهم في الرابعة عشرة من عمره.

وجد منتصِر نفسه مسئولًا عن بيته وأولاده، ولا بد له من أنْ يقوم بدور الأب ودور الأم معًا.

كان أولئك الصغار في غاية «الشقاوة» والشيطنة، ولا تقف طلباتُهم عند حد، وكلها في حدود المعقول، ولكن لا تسدها إلا حافظة عامرة بالنقود باستمرار. في حين أنه يشكو دائمًا من فراغ في اليد والجيب والوِفاض ... فمُرتَّبه الذي يتقاضاه من وظيفته الحكومية لا يمكث في يده إلا يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، في بداية الشهر، وبعد ذلك يبدأ في شراء ما يلزمه على الحساب، من البَقَّال والخُضري وبائع الفول المدمس والخبَّاز. أما

الجزار فقد أوقف التعامل معه تمامًا بعد أن ارتفع ثمن اللحم إلى ما فوق طاقته، بأسعار خيالية غير معقولة ولا مقبولة ... وهكذا، حرَّم منتصر دخول اللحم بيته، وحرَّمه على عياله المساكين المظلومِين الذين لا ذنب لهم فيما يدور حولهم، خصوصًا بعد أنْ حُرِموا عطف الأم التي كانت تلبِّي طلباتهم بنفس راضية، كما حُرِموا حنانها الذي لا يمكن تعويضه بحال ما.

وذات يوم، بينما كان منتصر عائدًا إلى بيته من عمله، إذ تذكر فجأة أنَّ ابنه الأصغر حُسينًا قد ناشده أنْ يحضر له ثمرة من ثمار المانجو التي سمع عنها ولم يرها أو يذقها، وذلك لكي يثبت وجوده في هذه الدنيا، وكان منتصر قد وَعَد ابنه هذا بأن يُحضِر له ما طلب مَهما يكلفه.

راح منتصر يقول لنفسه: لا بد أنْ يأكل جميع أولادي المانجو، ولا يجوز أنْ يفوز حسين بثمرة مانجو، بينما ينظر إليه إخوته الثلاثة الآخرون في حسرة وألم ... ليست عيونهم من حجر!

دفع منتصر كل ما في جيبه من نقود ثمنًا لكيلو مانجو يتألف من أربع ثمرات صغار، وهو مسرور مغتبط النفس. وفي البيت، عمَّ السرور قلب حسين، ومراد، ومنير، وسمير؛ فنال كل واحد منهم ثمرة، أخذ يقشرها، ويلحس لحمها بلسانه أولًا، ثم يأكل قطعة قطعة في لذة ما بعدها لذة، وشهدوا جميعًا بأن المانجو ألذ فاكهة في الدنيا، بل هي سيدة الفواكه في العالم. وبذا زادت معلوماتهم بمعرفة المانجو، وامتلأ قلب منتصر بالبهجة والسرور، وشعر براحة نفس، رغم ما تكلَّف من نقود كان في أشد الحاجة إليها، إذ استطاع أنْ يُدخِل السرور والفرح على نفوس أولاده وفلذات كبده الذين لم يَذوقُوا جزءًا من ألف جزء مما ذاقه هو في صِغره. وقال في نفسه إنه لو بقي على الطَّوى بقية حياته، ولم يأكل أي شيء، فهو لا يزال متفوقًا على

أولاده من حيث الطعام والشراب؛ فقد نَعِم بخيرات، في طفولته وصباه، لم ينعم بها أولاده، أو حتى يسمعوا عنها.

لم يبقَ في جيب مُنتصر سوى بضعة قروش اشترى بها لأولاده قليلًا من الطعمية والبصل. وهكذا بعد أنْ ذاقوا حلاوة المانجو، كأولاد الأعيان والأثرياء، عادوا إلى الطعمية والفول والبصل، التي أَلِفوها، وغدَت طعامهم اليومي الذي ينقذهم من الموت جوعًا.

بعد ذلك ببضعة أيام، قال سمير، وهو ابنه الأكبر: أبتاه! بَلِي حذائي المَطَّاطي تمامًا، وقدمي تخرج منه، فيرى جميع زملائي بالمدرسة أنني ألبس الحذاء بدون جورب.

فقال الأب: أهكذا فجأة؟

قال سمير: كلَّا ... بل من طول الاستعمال؛ فليس عندي غيره، كما تعرف، وله في قدمي مدة سنتين بل أكثر.

وقال منير: وأنا أيضًا، بنطلوني ممزَّق، وأحتاج إلى بنطلون جديد؛ إذ شكلي لا يَسرُّ من ينظر إليَّ، والأولاد في المدرسة يسخرون مني، ولا يريد أي واحد منهم أنْ يصادقني بسبب رثاثة ثيابي.

وقال مراد: وأنا أيضًا بحاجة إلى قميص جديد؛ لأن قميصي ممزَّق ومرقوع بأكثر من رقعة، ومهلَهل. ومُدرِّس التربية البدنية، المشرف على نظافة التلاميذ أمرني أنْ أشتري قميصًا جديدًا، وإلا طردني من المدرسة.

وقال حسين: أما أنا، يا أبي، فأريد حقيبة جديدة للكتب؛ إذ تمزقت حقيبتي تمامًا، وصرتُ لا أستطيع استعمالها؛ لأن يدها انقطعت وضاعت، وتمزَّقت جوانبها، فتسقط منها الكتب والأقلام.

لم ينم منتصِر طول اليوم وهو يفكر في طلبات أولاده وكلها معقولة وصحيحة وضرورية، ولكن من أين تأتيه النقود التي يشتري بها هذه الطلبات الأربعة؟ لا بد له من عشرات الجنيهات في حين أنه لا يملك جنيهًا كاملًا. فأحس بالعجز الشديد، وزاد سخطه على الحياة، وتذكَّر قول الإمام علي بن أبي طالب إذ قال: لو كان الفقر رجلًا لقتلته … فلعن الدنيا التي تعطي من تشاء بالملايين، وتمنع من تشاء. وهكذا تحامل على الأقدار.

طرد منتصِر من رأسه فكرة الزواج بامرأة أخرى كي ترعى أولاده وترعاه وتساعده على الحياة، ولكنه أدرك أنَّ من يتزوج بامرأة ثانية يكون كالمستجير من الرمضاء بالنار. فما إنْ يعرف طعم حلاوتها حتى يقع أسيرها، فتبدأ تشكو من أولاده عشرات الشكاوي واحدة منها صادقة والباقي كذب وبهتان، وظلم وعدوان، فيقع في حيص بيص، يدرك المثل العامي: «كنت مرتاحة، جبت لي حاجة.» فقد طُبعت زوجات الآباء على كراهية أولادهم من الزوجات السابقة، ويعملْن على الانفراد بالأزواج كي يَقْدِرْن على التمتع باللذة كاملة … فإذا تزوج منتصِر خسر أولاده، بل خسر راحته واضْطُر إما إلى تطليق الزوجة الثانية أو طرد أولاده من الأولى … ثم أين له بالمال الذي يتزوج به؟

عوَّل منتصر على أنْ يبحث عن عمل آخَر يُدر عليه بعض ما يساعده على مواجهة طلبات أولاده من طريق شريف.

ظل منتصر يبحث ويبحث عن عمل إلى أنْ عثر على عمل سائق تاكسي لدى أحد الأشخاص … ينزل من بيته عند الفجر، ولا يعود إليه قبل منتصف الليل مع ساعة راحة واحدة، من الثالثة إلى الرابعة بعد الظهر حيث يلتقي بأولاده ويُلبِّي طلباتهم.

اعتلّت صحة حسين، وما هي إلا أيام حتى مات … فَتكهْرَب جوُّ البيت، وحزن منتصِر كل الحزن على وفاة ولده الأصغر، واعتبر نفسه مسئولًا عن وفاته؛ إذ أهمل عَرْضه على طبيب؛ ظنًّا منه أنه أصيب بإنفلونزا، عما قليل تنقشع. ولكن الصبي مرض بالحمَّى التيفودية التي تصيب الأمعاء … كما أنه كان يتركه في الفراش دون مراعاة، لانشغاله بالتاكسي.

اغتم منتصر وتشاءم من عمله الجديد الذي تسبب في موت ابنه الحبيب «آخر العنقود» فترك ذلك العمل غير نادم ولا متذمر.

نسي الأولاد طلباتهم السابقة، وفرحوا كثيرًا بعودة أبيهم إليهم ليرعى شئونهم، وشكروا المولى — عز وجل — على ما هم فيه من شَظَف العيش مع وجود أبيهم معهم، واكتفوا بتكاتُفهم والتئام شملهم … وكانوا ينظرون إلى السماء، ويقولون جميعًا في نفس واحد: رحماك يا رب … تَحنَّن على أبينا … حسبنا الله ونعم الوكيل … وكان أبوهم يقول وراءهم: آمين، آمين، يا رب العالمين … أنت وحدك السميع المجيب المعين!

الفصل السابع

يا وارث! من يرثك؟

يعمل محسن في مصنع للسيارات بإحدى ضواحي القاهرة، يخرج من بيته في الصباح فيذهب إلى مقر عمله بسيارته الفيات ١٣١، فلا يعود إلى بيته إلا في المساء حاملًا ما يلزم لأسرته من الطعام وغيره.

تتكون أسرة محسن من زوجته الوفية وابنته مَحاسن البالغة من العمر اثني عشر ربيعًا، وابنه علاء ويبلغ سبع سنوات. يعيشون جميعًا في سعة ورخاء، وسعادة وهناء؛ إذ تُعنى الأم بتربية طفليها والعناية بالبيت من تنظيف وترتيب، وتُعِد الطعام على أحسن ما يكون الإعداد. ولا يخلو الأمر من أنْ تخيط لأسرتها بعض الملابس البسيطة؛ إذ لا تجيد الخياطة كما تجيد الطهو.

مَحاسن طالبة بالمرحلة الإعدادية، وعلاء بالمرحلة الابتدائية غير أنَّ مَحاسن لم تهتم بدروسها قدر اهتمامها بنفسها وبمظهرها؛ إذ كانت متوسطة الجمال وتريد أنْ تبدو أمام الناس على قدر وافر منه. أما علاء، وهو في الصف الثاني الابتدائي، فكان على عكس شقيقته، مُجِدًّا في دروسه، تبدو عليه مَخايل الذكاء بما أدهش جميع مُدرِّسِيه، فكان دائمًا الأول في فصله، ولم يهمل واجباته في أي يوم.

ما تجيده مَحاسن إجادة تامة، هو استخدام الأصباغ والمساحيق والعطور، وبذا بدَت رائعة المَلاحة وفِتنةً للناظرِين، يُعجَب بجمالها وسحرها شُبَّان الحي

كله.

ذات يوم، بينما كان مُحسن عائدًا إلى بيته في ساعة متأخِّرة من الليل، والظلام يسود الطريق الريفي بين الضاحية التي يعمل فيها والقاهرة، سقطَت سيارته في حفرة عميقة لم يَفطَن لها بسبب شدة الظلام؛ فتحطَّمَت السيارة ومات محسن.

بَخَع الحُزن أسرة محسن؛ إذ كان عائلها الوحيد ولم يترك لها مُدَّخَرات تعيش منها، إذ كان مَذهب محسن: «رزق يوم بيوم، والنصيب على الله.» ففكرت الأم في أنْ تعمل في تنظيف البيوت لتكسب ما يقوم بنفقات الأسرة، غير أنَّ محاسن لم تتركها لتنفذ ما اعتزمت عليه لمواجهة مُتطلَّبات الحياة، وعوَّلت على أنْ تعمل هي وتَعول أُمها وأخاها ونفسها.

ظلَّت محاسن تبحث عن عمل حتى حَفِيت قدماها، وأخيرًا وجدت عملًا كخادمة لدى أسرة تتكون من رجل عجوز وامرأته الطاعنة في السن، فقبِلت العمل عن طيب خاطر، ولكنها لم تُخبِر أمها بحقيقة عملها، بل قالت لها إنها تعمل مُربِّية لطفل صغير في أسرة تتكون من أب وأم. فوافقَت أمها على هذا العمل الحقير، ما دام مُرتَّبه كافيًا لأسرتها.

تخرُج مَحاسن من بيتها في منتصف الساعة الثامنة صباحًا، مُتبرِّجة بصورة مُلفِتة للأنظار، ولا تعود إلى بيتها إلا في الساعة الثامنة مساءً.

سارت الأمور رتيبة على هذا النحو، وفي آخر كل شهر تَتسلَّم الأم مُرتَّب ابنتها مَحاسن فتدير به بيتها وترعى مصالح ابنها وابنتها وهي قانعة راضية بما قسم الله لها من رزق عوَّضها على زوجها.

كبرت محاسن، والْتفَّ عُودها، وظهرت مفاتنها، فكَعَب نَهْداها، وتناسقت أعضاء جسمها البَض. وكانت متوسطة القَوام: لا هي بالرفيعة النحيلة، ولا بالسمينة البدينة، ولكنها صارت تَتفانَى في مكياجها لتبدو أجمل فتاة في منطقتها كلها، وقد أُعجِب بها جميع فِتيان الحي الذي تقيم فيه، وأخذوا يسيرون خلفها يُطرُون مَحاسنها ويُلقُون على مسامعها عبارات الغزَل والغرام، ولكنها لا تلتفتُ لأي واحد منهم، كأن كلامهم ليس لها، بل تسير في طريقها إلى محطة الأوتوبيس، فتركبه إلى مَقر عملها.

وشيئًا فشيئًا صارت مَحاسن تتأخر في عملها إلى ما بعد الثامنة مساءً، ثم إلى ما بعد التاسعة، وأحيانًا إلى ما بعد العاشرة، ومن آنٍ إلى آخر كانت تستأذن أمها في أنْ تذهب إلى السينما لتُرفِّه عن نفسها بعد عناء العمل، فلا تعود إلى بيتها إلا في منتصف الليل، والأم راضية على كُرْه منها؛ لأن محاسن هي التي تقوم بنفقات البيت ولا يصح أنْ تغضبها وهي شابَّة، والشَّباب أهوج، قد يفعل المستحيل غير مُكترِث لغضب الكبار، ما دام الشيطان يُزيِّن له ما يفعله.

كثُرَت الأقاويل حول محاسن، ولَاكَت الألسنة سِيرتها، وحامَت حولها الشُّبهات، ولكنها لم تَكترِث لأقوال الناس، ومَضت في التَّبرُّج ما شاءت أنْ تتبرَّج، مما شجَّع أهل شارِعها على مُضاعَفة الشائعات، واختلاق القصص الكاذبة حولها وحول سَيْرها السيِّئ؛ إذ لا يَعرِف أحد إلى أين تذهب، ولا أين تتأخر، وإذا حاول البعض أنْ يتعقبوها راوغتهم بركوب التاكسيات، وإذا سألتها أمها عمَّا تسمع من الأقوال، تجيب بأنَّ لهم الحق في أنْ يتقوَّلوا؛ لأنَّ الغيرة تنهش قلوبهم؛ فهي أجمل فتاة في الحي، وأشرف امرأة إذْ لو تقدم شاب يريد التحدث إليها صدَّته وصمَّت أذنيها عن سماع كلماته كما لو كان

يَهذي، أما النساء فيحَسُدْنها على ما هي فيه من جمال وأناقة، والحسد موجود في العالم منذ القدم.

تعمل محاسن لدى تلك الأسرة الواسعة الثراء، الرجل مُسِن ولكنه في منتهى الصحة والقوة، والمرأة عجوز دَردَبيس، أكل عليها الدهر وشرب وبال، وخبَا جمالها وما عادت تَصلُح لمتعة الزوج. فوجدت مَحاسن الجو مهيئًا لها لكي تلعب بعواطف ذلك الغني، كي يقع في غرامها، ويتزوجها، وعمَّا قريب يموت فترث نصف أمواله وما يملكه من عمارات ومزارع. وربما ماتت زوجته قبله، فتئُول إليها جميع الأموال والمُمتلكات، وبذا تستطيع أنْ تتزوج شابًّا جميل المُحيَّا غنيًّا، أو ذا مركز مرموق، والشُّبان في هذه الأيام يَسعَون وراء الثراء، ثم إنَّ جمالها ليأسر كل شابٍّ، ولا سيما وهي الفتاة اللعوب التي تعرف من أين تُؤْكَل الكتف، وكيف تلعب بالقلوب.

تتجمل محاسن كي تمعن في التضليل، وكان مخدومها يشجعها على ذلك؛ لأنه كان يرى فيها غانية يشتهيها لنفسه ويُسعِده أنْ يراها تعمل شبه عارية، فما إنْ تبدأ محاسن عملها، حتى تخلع فستانها وتظل بالقميص والسروال الشفافين، وبذا كان ذلك الثري ينظر إليها كثيرًا وهي تعمل وتأتي بحركات تبرز مفاتن جسمها، وكانت سيدتها توَدُّها كذلك كي يظل زوجها في سعادة وبهجة أمام ناظريها، بدلًا من أنْ يتزوج ويأتي لها بضُرَّة تُنغِّص عليها عَيْشها وحياتها، بعد أنْ حرمها الزمن نعمة الشباب والجمال وإنجاب الأولاد.

استمرأَت محاسن هذه الحياة السَّهلة الممتعة في ظِل هذا الرجل الشهواني. وأحيانًا، كانت الزوجة تطلب من محاسن أنْ ترقص أمامها وأمام زوجها وهي بالقميص الشفَّاف، فتقوم محاسن على الفور، ترقص في حركات مثيرة وبفَن أصيل كأنها راقصة في مَلهًى، فيجد سيِّدها لذَّة عارمة

في رؤيتها كذلك، كما تُسَر سيدتها لسعادة زوجها بمشاهَدة مَحاسن وهي ترقص وتهز أردافها وتغمز له بعينيها غمزات لا يفهمها إلا العشاق، وعلى ذلك كان سيدها يُغدِق عليها الهدايا الثمينة توطئة للإيقاع بها لينال منها مرامه.

لاحظت السيدة العجوز ميل زوجها نحو محاسن، فعَوَّلت على أنْ تساعده على ذلك، وهو أخَفُّ الضرَرَين، بدلًا من أنْ يتزوج، فكانت تخرج لزيارة الأقارب، وتترك زوجها مع مَحاسن كي يخلو لهما الجو، فيتمتع الزوج معها كما يحلو له.

ذات يوم، والسيدة العجوز في زياراتها المتعَمَّدة، طلب زوجها من مَحاسن أنْ ترقص له. فوجدت الفرصة سانحة لكي تثير عواطفه؛ إذ كانت تراعي بعض الاحتشام وهي ترقص في حضرة سيدتها أما الآن، فهي ترقص دون ما حياء ولا خجل؛ إذ ليست سيدتها أمامها، وهي وحدها مع سيدها الذي عوَّلت على أنْ تأسره بشتَّى الطُّرق.

كانت حركات مَحاسن وهي ترقص تنادي مَن يهوى التمتع بها. فلم يتمالك الرجل العجوز نفسه، فهجم على مَحاسن، وضمها إلى صدره متلهفًا، وطوَّقها بذراعيه بشدة حتى كاد يعتصرها، وهو في غير حواسِّه، وانهال على فمها يُقبله بحرارة، ويمص رُضابها الحلو ... ثم أخذ يتحسس جسمها، فاستسلمت له راضية مطيعة. فلما رأى الصيد مذعنًا لرغباته، تمادى في عبثه، ولم يتركها إلا بعد أنْ سلبها أغلى ما تعتز به الفتاة.

تكرر هذا العمل مرات ومرات. فكلما كانت سيدة محاسن تزور أقاربها، كان سيدها يزورها في مخدعها يتمتع بجسمها، ويشفي غليله منها كما لو

كانت زوجته، ومحاسن لا تمانع، بل تشكر الظروف التي تساعدها على تحقيق خطتها التي رسمتها لنفسها وأحكمت تنفيذها.

تحرك الجنين في رحم محاسن، وبرز بطنها وتكوَّر، فأخبرت سيدها بذلك في حضور سيدتها التي كانت تدرك كل ما كان يدور بين زوجها وخادمتها، وخيرته بين أمرين؛ إما أنْ يتزوجها شرعيًّا ليمحو عارها أمام أمها وأخيها والجيران، وإما أنْ تلجأ إلى البوليس ليأخذ لها حقها منه، فنصحته زوجته بأن يعقد عليها ويتزوجها؛ درءًا للفضيحة والسجن، فوافق الزوج على ما أشارت به زوجته، وحدَّد موعد عقد الزواج بعد أسبوع.

شاهَد أهل الحي بروز بطن محاسن، فكثرت الأقاويل، وانتشرت الشائعات والقصص. كما شاهدت الأم تكور بطن ابنتها محاسن فسألتها عن ذلك في حضور ابنها علاء. فصارحت محاسن أمها بعلاقتها الآثمة مع سيدها، وبأنها لم تعمل مُربِّية، وإنما كانت خادمة لدى هذين العجوزين، وبأنها استسلمت لأغراضه الدنيئة كي يتزوجها مكرهًا، فتَرِث الأموال والعمارات والمَزارع، ثم تجد من يتهافت على طلب يدها، وقد غدَت واسعة الثراء.

فقال علاء: إذن، يا محاسن، فالطفل الذي في بطنك «ابن حرام».

قالت: هو كذلك الآن، ولكنه سيصير ابن حلال بعد أسبوع واحد.

تظاهَر علاء بأنه استحسن فعلة محاسن، وتسلل إلى المطبخ: فأخذ سكينًا شحذها، وعاد إلى أخته بحضور أمه، وغيب نصل السكين في قلب محاسن.

سقطَت محاسن على الأرض جثة هامدة قبل أنْ تحقق ما كانت تحلم به من ميراث، وصدق المثل: «يا وارث! من يرثك؟»

الفصل الثامن

يحيا الحب مع الحرية

ملأت الأفكار الكثيرة رأس سَمير وهو سائر في الطريق متجهًا إلى بيته، متعَبًا ومنهوك القُوى مِن عمله الشاق، الذي يبدأ في الثامنة صباحًا، ولا ينتهي قبل الساعة الرابعة بعد الظهر؛ لذا كان يسير مبلبل الفكر، مشغول الخاطر بتلك الأفكار التي تؤرِّقه ليلًا، وتنفي النوم عن عينيه. ولكنه، رغم هذا، إذا تذكر حبيبته سهير، هانت عليه كل هموم الدنيا.

تعرَّف سمير بسهير في الجامعة الأمريكية ... وكانت فتاة حلوة القَسَمات، عذْبَة البَسمات، في غاية الأناقة والفتنة ورقَّة الحديث وسمو الخُلق.

وذات يوم، ابتسمت سهير لسمير، ابتسامة ملكت عليه لُبَّه وفؤاده، وشجَّعَته على أنْ يتقدم إليها ويتحدث معها، ووجد منها استجابة مشجعة؛ فدعاها إلى أنْ تتناول معه قدحًا من الشاي في كافيتريا الجامعة حيث عرَف طرفًا من ظروفها، وحكى لها بعضًا من ظروفه وقلبه قد اشتعل بالميل إليها، بل وبحبها حبًّا جارفًا من أول لقاء ... فأفضى إليها بما يعتمل في نفسه نحوها من حب، فأجابته بأن نفس الشيء حدث لها ... وهكذا أحب كل من سمير وسهير الآخر، وتوطدت عرى الغرام الشديد بينهما.

لعب التليفون دورًا هامًّا، في حياة هذين العاشقين. فما كان يحلو لسمير أنْ يخاطب حبيبته هذه في التليفون، إلا بعد منتصف الليل، والأهل عنده وعندها نيام، ولا يكون ساهرًا في ذلك الوقت سوى أجفانه وأجفانها، وبذا

يمكن لكل منهما أنْ يُسِرَّ إلى حبيبه بمكنون صدره، ويبثه لواعج الحب والهيام، دون رقيب ولا دخيل.

هكذا تحابَّا ... وتقابلَا ... واختليَا ... ونَهلَا من كئوس الحب مُتْرَعة؛ إذ تمكَّن العشق من قلبيهما وسَعِد سمير بهذا الحب، كما لم يسعد بشيء من قبل.

بينما سمير سائر والهواجس والأفكار تُراوده وتَشغَله، إذ لمح بالقرب منه فتاة تمشي مع شاب، يتأبَّط ذراعها بشدة ويحاول أنْ يَجُرها جرًّا.

جُنَّ جنون سمير؛ إذ كانت سهير هي تلك الفتاة التي أبصرها تمشي مع ذلك الشاب ... حاول أنْ يكذِّب عينيه ... ولكنَّ دافعًا جعله يسرع الخطى، حتى مرق بجوارهما، وحدَجها بناظريه ... فكانت الطامَّة الكبرى؛ إذ كانت هي سهير بعينها، وبلحمها ودمها، إنها نفس سهير حبيبة قلبه.

دارت الدنيا أمام عيني سمير، وكاد يقع على الأرض مغشيًّا عليه من هول تلك الصدمة التي أصابته؛ إذ كان يعتقد تمامًا أنَّ سهير لا تحب أحدًا سواه، وأنه أول شخص في حياتها الغرامية ... إذن، سهير تخونه ... وفي وضح النهار علنًا ... على عينك يا تاجر ... والتاجر هو سمير صاحبنا وصاحبها ... ومع من؟ مع شاب أصغر منه سنًّا وأقل أناقة وسماحة، إنه «سنكوح» بالنسبة له.

فكَّر سمير في أنْ يُقدِم على عمل طائش، مما يفعله العشاق في لحظة الهياج والانفعال، ثم يندمون، فراجع نفسه ورأى أنْ يتريث، وأوحى إلى نفسه بأن هذا الشاب قد يكون أخاها أو ابن عمها، ووجودهما معًا بريء ... وأقنع نفسه بأن يرجئ الحساب إلى ما بعد منتصف الليل بالتليفون.

ما إنْ دقت ساعة الحائط التي بحجرة نوم سمير، تعلن الثانية عشرة مساءً، حتى أدار قرص التليفون بأرقام تليفون معشوقته، وقال: ألو ... سهير؟

– ألو ... نعم، يا سمير.

– ما هذا الذي رأته عيناي اليوم؟

– ماذا رأيت، يا حبيبي؟

– رأيت شابًّا، في مقتَبل العمر، يتأبط ذراعك بشدة، ويكاد يُقبِّلك في وسط الشارع أمام عيون الناس.

– أين كان ذلك، يا سمير؟

– في ميدان الفلكي.

– ولكنني لم أزر ميدان الفلكي اليوم، ولا أمس، ولا حتى طوال الأسبوع الماضي كله.

– أتنكرين ما شاهدتُه بعيني رأسي، ولم يخبرني به أحد؟ ألم تكوني مع شابٍّ يتأبط ذراعك، ويحاول أنْ يجرَّك نحوه، ربما لِيقبِّلك أو ليعانقك؟

– لَمْ يتأبطني.

– إذًا، كنتِ مع شاب.

– نعم ... هذا صحيح.

– ولِمَ تنكرين؟ أتكذبين عليَّ، رغم أنني مررت بجواركما، وحدَجتُك بنظرة ذات معنى التقطَتْها عيناك، وعرفتِ تمامًا، ما أقصد؟

– لقد كنتَ جريئًا، في هذه الحركة، يا سمير ... إذ سألني ذلك الشاب عمَّن تكون؟ وعمَّا إذا كان بيني وبينك أية علاقة؟ ودار بيننا حديث طويل؛ لأنه أراد أنْ يعرف نوع هذه العلاقة.

– لا يهمني ماذا قال لكِ ذلك الشاب، ولكن يهمني أنْ أعرف ما هي علاقتك به؟ وكيف سمحتِ لنفسكِ بأن تتركيه يتأبط ذراعك، ويسير إلى جانبك بتلك الصورة على رءوس الأشهاد في شارع من أشهر شوارع القاهرة؟

– أنا حُرة ... أفعل ما أريد وما يحلو لي، فلستُ قاصرة أحتاج إلى وصِي.

– وما موقفي منك، وأنت تعرفين حق المعرفة مدى حبي إيَّاكِ؛ إذ أحبك من أعماق قلبي، وأغار من النسيم أنْ يلمس خديك، ومن الثياب أنْ تلتصق بجسمك. أنسيتِ ما بيننا من حب شديد؟ أم أنك ضربتِ بهذا الحب عُرض الحائط، وانتقلتِ إلى حب جديد؟

– كلَّا، يا عزيزي سمير ... لم أنسَ حُبَّنا، ولن أنساه، إنه ما زال قائمًا في أغوار فؤادي.

– إذًا ... من كان ذلك الشاب الذي راح يجرك في الطريق بكل جرأة؟

– وهل يهمك أنْ تعرف من كان ذلك الشاب؟

– طبعًا ... يهمني كثيرًا.

– إذن، فأمسِكْ أعصابك وتمالَكْ نفسك.

– من هو؟ قولي.

– إنه زوجي ... نعم، زوجي.

– أحقًّا ما تقولين؟

– كل الحق ... كان زوجي، ثم طلَّقَني، ويريد الآن أنْ يَردَّني إلى عِصْمته ... كان يشدني ويجرني؛ لأنني كنت أقاومه، ولا أريد الرجوع إليه.

– ولماذا لم تخبريني بأنه قد سبق لكِ الزواج، ثم الطلاق؟

– هذه قصة أردتُ أنْ أنساها تمامًا؛ ولذا دخلت معك في غرام جديد، أُعوِّض به سابِق حُبِّي لمطلِّقي هذا ... أريد حبًّا علاقته نظيفة بلا قيود ولا تعقيدات أو ارتباطات، وبلا عقود ولا زواج ... علاقة لا تتضمن كلامًا فارغًا، بعد ما مر بي من تجربة قاسية. فإن زواجي بمصطفى لم يَطُل أكثر من شهر، ثم رماني بيمين الطلاق بكل بساطة، ناسيًا الحب، وما كان بيننا من حب قبل الزواج.

– أراكِ تتكلمين عن مصطفى بلوعة وأسًى وحَنَق شديد، لا بد أنه أغضبكِ غضبًا لا مزيد عليه.

– نعم، إذ أسعدتُه في زواجي بما لم تُسعِده امرأة أخرى زوجها ... تفانَيت في إمتاعه بجميع الوسائل والطرق، ولكنه خائن، نسي ما حظي به معي من لذة وسعادة وطلقني بدون سبب ... كانت نزوة طارئة ندم عليها فيما بعد، ولَاتَ ساعةَ مَندَم. لقد كرَّهَني في الرجال، ولكنك يا سمير، أعَدْتَ إليَّ الثقة بهم؛ لذا أريد أنْ نظل معًا في حب دونه حبي مصطفى قبل أنْ يطلِّقني. وسترى مني، يا سمير كل حب ووفاء وإخلاص، وسنظل أحباء طول العمر، دون أنْ يفكر أيُّنا في الزواج بالآخَر، طالما كانت تلك عاقبة

الزواج ... وأرجو، يا حبيبي سمير، أنْ تنسى ما رأيتَه اليوم، لنعيش سويًّا حبيبين، قلبًا وقالبًا وروحًا.

– سأنساه تمامًا، يا حبيبتي سهير، كأنه لم يكن، وكأنني لم أبصرك بصحبة مصطفى، نعم، سيكون حبًّا طليقًا حرًّا، وكما يقولون: يحيا الحب مع الحرية!

– نعم، يحيا الحب مع الحرية ... سيكون حبًّا دونه حب ليلى وقيس، أو كُثَيِّر وعَزَّة، أو بُثينة وجَميل بن مَعْمَر ... سأُسعِدك وأُمتِّعك؛ يا حبيبي سمير بما لم يَسْعَد به مصطفى نفسه. سنعيش إلْفَيْن متآلفَين بلا عُقد زواج، ولا ارتباطات الزواج المُعقَّدة، سترى مني كل حب ووفاء، وكل عشق يتصف بالنقاء، دون ما مَكْر ولا خداع ولا دهاء ... أشر إليَّ بإصبعك تجدني أُلبِّي النداء، في شوق وولاء، بغير تملُّق ولا رياء، قُدْني كما تشاء، أُسلِّمك اللواء ... أقف إلى جانبك باستمرار في السراء والضراء. وسأتفانَى في الاحتفاظ بجمالي ليمتعك وتراني دائمًا مَليحة حسناء. لا أقول إنك ستنهل من قُبلاتي وحدها، بل ستنال مني كل ما تشاء، دون ما خجل ولا حياء ... فنحن شخص واحد وسنظل كذلك طول حياتنا، في الصباح والمساء، وستجد مني ما لا تجده من سائر النساء.

– هل يدور بخلدك أنني كنتُ سأرتكب جريمة اليوم، في ميدان الفلكي؟

– هل كنتَ ستقتلني؟

– لستِ أنتِ وحْدَك، بل كنتُ سأقتلكما كليكما.

– ليتكَ قتلتَني، فهو أهون وأرحم من أنْ يقتلني مصطفى.

– هل هدَّدكِ وتوعدكِ بالقتل؟

– نعم، وقال أكثر من ذلك ... قال إنَّه سيفصل رأسي عن جسمي؛ ظنًّا منه أنني على علاقة بشاب جديد، أتمتَّع معه بما يغنيني عنه، هكذا علَّل سبب رفضي العودة إليه. كأنه كان يقرأ الغيب، أو أنَّ شخصًا ما لمَحَنا معًا، فأخبره.

– إذن، فقد كنتِ اليوم هدفًا للقتل، سواء مني أو من مصطفى، ولكنَّ الله تعالى تَحنَّن علينا كلينا بأن نجَّاك من القتل لنحظى معًا بالحب العميق الأصيل، ويعيش كل منا لا يعرف غير صاحبه ولا يحب غيره أو يفكر في أنْ يحب سواه.

– بيد أنَّ الموت على يديك أرحم، يا سمير ... على الأقل، أنت تُحبني وتُقدِّر هذا الحب، أما هو فيريد أنْ أعود إليه، ليس حبًّا لي وإنما ليمنعني أنْ أحب غيره، وأحظى مع ذلك الحبيب بالمتعة والسعادة، بينما هو يحب غيري ويسعد معها. يريد التضييق على غيره، والتفريج على نفسه. هذه أنانية بغيضة جُبِلت عليها نفسه. ربما طلقني إرضاءً لمعشوقته، فلما تَنمَّرتْ له أراد العودة إليَّ، ولكن هيهات.

– هل أفهم من كلامك هذا، أنك لا تحبين مصطفى، ولا تميلين إليه؟

– الواقع أنني كنتُ أحبه، أما بعد الطلاق، فانقلب الحب إلى كراهية وبغضاء، وما عدتُ أطيقه أو أطيق رؤيته، ذلك المُحِب لنفسه.

– إذن، فلماذا تزوجْتِه؟

– قلتُ لك، إنَّني كنتُ أحبه إلى أنْ طلَّقَني، ولذلك الحب قصة طويلة، وتاريخ مضى واندثر.

– شكرًا، يا أحلى وألذ سوسو في الدنيا.

– وأنتَ يا أحلى ميمو في العالم كله.

– إذن، فإلى اللقاء غدًا ... سأنتظر لقاءك وأنا على أحر من الجمر.

– بإذن الله ... وداعًا ... وإلى اللقاء.

الفصل التاسع

جسد بلا قلب

كنتُ نائمًا، في عز النوم، ذات ليلة، فإذا بجرس التليفون يرن بلا هوادة، فأيقظني من أحلى نومة، فنهضتُ مفزوعًا وأمسكتُ السَّمَّاعة.

– ألو ... أنت نائم؟

– نعم، نائم ... فالساعة تقترب من الرابعة صباحًا ... مَن أنتِ، يا ذات الصوت العذب هذا؟ وماذا تبغين من إيقاظي في هذا الوقت المبكر، وكنت أرى حلمًا جميلًا؟

– لا بد أنكَ رأيتَني في ذلك الحلم، وها أنتَ تعترف بعذوبة صوتي، فلا بد أنْ أكون جميلة حقًّا. وعلى أية حال ... ألم تعرفني حتى الآن؟

– للأسف، يا هانم! فرغم صوتك الموسيقي، فإنه غريب عليَّ، لم أسمعه من قبل ... من تكونين، يا ذات الصوت الذي له هذا الرنين؟

– أنا نرمين.

– ومن تكون هذه النرمين؟

– نرمين، التي كنتَ تُقبِّل قدميها قبل يديها، كي تَمُن عليك بنظرة أو تمنحك ابتسامة، أو تسمعك كلمة ... هل نسيتَني؟

– كلّا ... لم أنسكِ ... تذكرتكِ الآن، يا غالية ... يا أغلى أنثى وقعتْ عليها عيناي ... وأحلى مخلوق قبَّلَته شفتاي ... وذات أعذب صوت سمعته أذناي.

– وهل ما زلتُ غالية عندك حتى الآن؟

– بل أغلى من زمان ... كانت أيامكِ كلها هناء وسعادة ونعيم مقيم ... فكم نَهلْنا من كئوس الحب، وكم شربنا من خمر الغرام والهيام ... كانت قُبُلاتك ألذ من طعم غزل البنات، ورُضابك أحلى من الشربات، وصوتك أعذب الأصوات، وكم سعدتُ بعناقك في أجمل الأوقات، وقضينا معًا أمتع الساعات ... فكيف حالك الآن، يا أحلى الفتيات؟

– أنا الآن في إجازة، جئت أقضيها في القاهرة مع ابنتيَّ: ريم ورشا.

– وماذا عن زوجكِ الكريم؟

– زوجي في عمَلِه بفرنسا ... تركتُه لأزور والدتي المُسنَّة، وإخوتي وأخواتي.

المهم: كيف حالُ قلبكَ العزيز؟

– كان قلبي معكِ طوال السنين الماضية ... إنني أعيش على الذِّكريات، ولا أنسى الأيام السعيدة التي قضيناها معًا ننهل من كئوس الحب ... نحظى بالعناق اللذيذ والقُبلات الحلوة.

– نعم ... وأنا لا أنسى الليالي الهنيئة التي تمتع فيها كل منا بالآخَر ... وهكذا كان قلبي معكَ، لا يمكنه أنْ ينساكِ أو ينسى حبكَ الذي فاق كل حب.

– أنتِ تبالغين، يا نرمين. أغلب الظن، أنكِ تحاولين أنْ تجامليني.

– إنْ كان الأمر كما تزعم، فلماذا أجهدتُ نفسي بحثًا، حتى عثرتُ على رقم تليفونك. وآثرتُ أنْ أكلمك في المواعيد التي كنا نفضلها، أيام سعادتنا سويًّا ... أقسم لكَ بأغلظ الأيمان، وبكل عزيز عليَّ، أنَّ قلبي لكَ وحدكَ ... وعلى فكرة، أين قلبُكَ الآن؟

– لن تصدقيني، إنْ قلتُ لكِ، إنَّني أعيش بلا قلب ... إذ تخلصتُ منه، وألغيتُ وجوده ... إنني جسد بلا قلب.

– وهل فقدتَ قلبكَ الكبير بمثل هذه السهولة؟

– ومن أنبأكِ بأنني فقدتُه بسهولة؟ لقد فقدتُه بعد عذاب طويل، وألم الحرمان والجوع والعطش.

– هل أصابكَ الجدب والقحط من بعدي؟

– هو ذلكَ، يا نرمين، يا ألذ العالمين ... من بعد قلبك، لم أجد قلبًا ... ومن بعد حبكِ لم أذق حبًّا ... ومن بعد حنانكِ لم أعثر على حنان صادق ... ومن بعد فمكِ الحلو، لم ألق فمًا عذبًا يشبعني ويرويني.

– إنني لأصدقكَ في كل ما تقول ... فما حدث لكَ حدث لي أنا أيضًا.

– هل أفهم من هذا، أنَّ الجدب الذي لحقني لحقكِ أنتِ أيضًا ... والجوع الذي حط عليَّ، حط عليكِ ... لا أصدق أن يحدث لكِ هذا، يا نرمين!

– صدِّقْني ... فحبُّنا لم يكن لهدف، رغم أنَّكَ أصبتَ الهدف ... ولم يكن لمأرب، ولو أنكَ نِلتَ مني كل مأرب ... كان هو حبي الأول ... وما الحب إلا للحبيب الأول ... وكما قال الشاعر:

كم منزل في الحي يألَفُه الفتى   وحنينه أبدًا لأول منزل

إنه حبي الصادق الثابت. حب عميق من أبعد أغوار القلب.

– كان هذا شأن حبكِ، ومكانه من قلبي ... لذا مات قلبي بمجرد زواجكِ المفاجئ، وسفركِ على الفور لتُغادري أرض الوطن لمدة تزيد على ربع قرن.

– حكمَتْ عليَّ الظروف القاسية بالاغتراب القاتل، وترْك الحبيب والحب ... وهناك تعذَّبْت، لا أهنأ بنوم، ولا براحة ... كنتُ كمن يفترش المَدَر، ويستند الحَجَر، مُكرهًا على السفر ... أَئنُّ ولا أجد مَن يسمع أنيني ... أَتوجَّع بمئات الآهات، وأحرص على ألا يسمعها أحد ... وجدت مَشقَّة عظيمة، وصعوبة بالغة، في كبْت عواطفي ومشاعري التي تَفتَّحت على خفقات قلبكِ، وتألَّقَت على ومَضات عينيك.

– للأسف الشديد، مات كل شيء ... ماتتِ الخفقات ... وتلاشَت الومضات. وأعيش الآن على الآهات، فلا أجد مَن يسمعها ... حتى الفضاء، يأبى أنْ يُردِّد صداها ... وأخيرًا، وَخَط الشيب رأسي، وابيضَّ فَوْدِي الأسود، واسود يَومِي الأبيض.

– هكذا حدَث لي ... ظهرتِ الشعيرات البيضاء، وبدأَتْ تغزو رأسي الذي امتلأ بالملح والفلفل.

ولَّى الزمان، وذهب الشباب، وعلينا أنْ نَجترَّ الآلام وحُرقة الفراق وقسوته:

ذهب الشَّباب فما له من عودة وأتى المَشيبُ فأين منه المهرب؟

– ألا يمكن لحبنا أنْ يعود؟

– لا أعتقد، يا نرمين.

– ولمَ لا؟

– لم أَعُد صالحًا لحب غير مضمون ... آليتُ على نفسي، أنْ أظل العمر كله أعزب، وأعيش من بعدكِ وحيدًا ... أما أنتِ، فمعكِ رجل، ومعكِ بنات، ومن حقكِ أنْ تعيشي لأجلهم، وتتمتعي بهم، وتتسيني تمامًا ... فالماضي لا يعود، وكفى ما كان.

– لكَ أنْ تنساني، أما أنا فلن أنساك، ولن أنسى شخصيتك الرائعة الفَذَّة ... والآن: وداعًا، مع أطيب التمنيات.

– ولكِ أيضًا، أطيب دعواتي وأمنياتي ... لك قُبلة أخيرة كنتُ أدخرها حتى يأتي يومها ... وجاء اليوم، فأدفعها لصاحبتها، والحمد لله.

الفصل العاشر

حلم تحقق!

استيقَظ عليٌّ من النوم وقد أزعجه ما رآه فيما يرى النائم. رأى حلمًا جاءه في صورة كابوس قضَّ مضجعه وأطار النوم عن عينيه ورأسه ... صحيح أنه نام غاضبًا من زوجته سُميَّة الدائمة الشجار معه لأتفه الأسباب، ومرات كثيرة بغير أسباب ... كانت من النوع «النكدي»، الذي لا يهنأ له عيش ولا يرتاح باله وضميره إلا إذا عكنن على غيره.

تشاجرت سُميَّة مع عليٍّ في هذه الليلة بسبب نفقات البيت التي كانت ترهقه بها يوميًّا تقريبًا. وكذلك لأنها طلبَتْ منه أنْ يشتري لها حذاءً معينًا ثمنه أربعون جنيهًا، وليس في مقدوره أنْ يوفر لها هذا المبلغ الضخم بالنسبة له ... أرادت شراء ذلك الحذاء اللعين لتلبسه في مناسبة هامة، ألا وهي الاحتفال بمرور ربع قرن على زواجهما؛ وكذلك لأن زفاف شقيقتها في نفس ذلك اليوم ... ولم يكن علي يحب شقيقة زوجته هذه كثيرًا؛ إذ حاول ذات مرة أنْ يغازلها ويطارحها الغرام؛ لأنها كانت أجمل من زوجته، فصدَّته في عنف، وفضحَته فضيحة «بجلاجل»، كما يقولون.

احتفظ علي بالحُلم لنفسه ولم يخبر به أحدًا، ولا حتى زوجته، معتقِدًا كل الاعتقاد أنه أضغاث أحلام، فالمرء يحلم كل ليلة تقريبًا ولا يتحقق أي شيء مما يدل عليه ما رآه في منامه.

بيد أنَّ ما أدهش عليًّا، هو أنه رأى نفس الحلم في الليلة التالية ... رآه هو بعينه دون أي تغَيُّر، وبنفس التفاصيل والفظاعة، فتشاءم وهو يستعيذ بالله، فلا يصدق أنه سيتحول إلى قاتِل؛ إذ رأى نفسه في الحلم ممسكًا سكينًا مشحوذة، ويهوي بها على صدر زوجته، ويكيل لها الطعنات بنفس تلك السكين، في جميع أجزاء صدرها وبطنها إلى أنْ فارقت الحياة ... لم يتصور أنَّ مَقْتَه زوجته سيئُول إلى هذا المصير البغيض.

لم يُطِق عليٌّ صبرًا فباح بما رآه إلى صديق حميم يثق كل منهما بالآخر ويطلعه على أسراره، ويفضي إليه بما يشغل باله ويضايقه، فيشير عليه بما يذهب عنه همومه ... فأشار عليه ذلك الصديق بأن ينسى ما رآه في الحلم ليلًا، ويعيش في واقع الحياة نهارًا. فأخبره علي بأنه ليس على وفاق مع زوجته، ويدب الشجار بينهما باستمرار، فلا يكاد يمر يوم بغير نقاش؛ لذا كان غير سعيد معها ... فهي دائمة الشكوى، بَرِمَة بكل شيء، وتطالبه بما هو فوق طاقته، وتُعَيِّره بفقره وتعامله بمنتهى القسوة، وتَشتُمه أحيانًا بأقذع الألفاظ، وتشتم الأولاد بين آنٍ وآخر بقولها: يا أولاد الكلب ... يا أولاد الحمار، وهكذا تهدر كرامته وسط أولاده ... كما أنها لا تتورع عن أنْ تشتمه على مَسمَع من الجيران والأهل والأقارب، حتى أصبحت الحياة لا تطاق بين عليٍّ وزوجته سُمَيَّة.

بعد ذلك بأيام، أفضى علي إلى صديقه هذا، بأن فكرة القتل راودته أكثر من مرة، ولكنه راجع نفسه وعدل عنها من أجْل خاطر ابنته «محاسن» الحلوة وولده سعد المُعوَّق، وسعاد صغرى ابنتيه.

أشار الصديق على علي بأن ينزع من رأسه فكرة القتل، وإذا كانت الحياة بينهما متعذِّرة إلى هذا الحد، فليطلقها ويتزوج بأخرى ترضَى بتربية

أولاده ... وهناك نساء كثيرات يوافقن على الزواج بهذا الشرط.

الواقع أنَّ عليًّا رجل مسالم، لا يميل إلى الشر، بعكس زوجته المشاكسة. فاستدان من صديقه أربعين جنيهًا، وسلمها إلى زوجته كي تشتري الحذاء الذي أعجبها، وتتوق إلى أنْ تلبسه في قدميها، وتتباهى به أمام الأهل والصديقات ... وهكذا ظن علي أنَّ ذلك سيصلح من حالها، ويُقوِّم خُلُقها ... ولكن هيهات. فكما يقول المثل اللبناني: «كم أعدل فيك يا ذيل الكلب والطبع فيك غالب ... طول عمرك أعوج ولو وضعوك في ستين قالب.»

مرت زوبعة الحذاء بسلام، ولكن إلى حين؛ فلم تَكُفَّ سُميَّة عن سبِّ عليٍّ وإهانته، وعبثًا حاول عليٌّ تقويم لسانها الوسخ، وتعليمها الأسلوب الصحيح في معاملته ومعاملة أولادها، ومعاملة الأهل والأغراب، وكثيرًا ما توسَّل إليها أولادها بأن تمتنع عن شتيمة أبيهم الطيب. فكانت تصدهم، وتوحي إليهم بأنهم لا يعرفون أباهم كما تعرفه هي ... فقد غَشَّها وخدعها عندما خطبها ليتزوجها، فأوهمها بأنه يربح من أعماله مبالغ طائلة، وأنه يملك مصنعًا للأثاث ولديه الكثير من العمال النجَّارين، ويُورِّد الأثاث لشتَّى المتاجر، ثم اتضح لها، بعد الزواج، أنَّ المصنع الذي يذهب إليه ليس مصنعه، وإنما هو مجرَّد عامِل نجار فيه، بأجر بسيط لا يكفي مَطالبها ولا مَطالب بيتها. ولما صارحته بهذه الحقيقة، أفهمها أنه باع المصنع لكي يدفع الصداق، ويؤثث شقة الزوجية، إرضاءً لأبويها، مؤملًا أنْ يُكوِّن نفسه فيما بعد، ويفتح مصنعًا جديدًا، ويستعيد شُهرته بين تجار الأثاث، ولقبه: «المعلم علي».

أصيب علي، بعد الزواج بصدمة قوية، أطارت لُبَّه، ونَغَّصت عليه حياته، وحرمته لذة النوم. وهو يقول لنفسه: جزاء المعروف، ضرب الكفوف، فعندما تزوج سمية، لم يجدها عذراء عندما اختلى بها بعد الزفاف

... وعندئذٍ توسَّلَت إليه وهي تبكي، ألا يفضحها، وأن يتستر عليها، ويعتبرها خادمة عنده، وستعيش لديه عَبْدة تحت قدميه، وأخبرته بأن شابًّا خطبها قبله، فكانت تخرج معه كما يخرج كل خَطِيبَين ... وفي إحدى المرات صحبها خلال شارع مُظلِم إلى شقة حيث أخذ يُقبِّلها ويعانقها، وهي راضية إذ سيكون زوجها، وفجأة برَك فوقها وسطَا على عفافها بالقوة، ولما حاولتْ أنْ تصرخ، وضع يده على فمها، ولما استغاثَت لم تجد المُغيث إلى أنْ نفذ السهم ونال منها مأربَه، ثم طيَّب خاطرها وأفهمها أنه سيتزوجها بعد فترةٍ قصيرةٍ، وبذا تنسى ما حدَث إذ ستصير زوجته.

بعد ذلك خرجَا معًا من تلك الشقة وهي لا تدري أين هي من هول الصدمة التي لحقتها، وأخذ يسير بها في عدة شوارع ومنعطَفات حتى أوصلها إلى بيتها، وكان ذلك آخر عهدها به، فلم يرجع إليها وهي لا تعرف اسمه ولا مكان عمله ولا موضع الشقة التي فقَدَت فيها شرَفها وعفافها.

ولما كان عليٌّ طيِّب النفس، رضي بها زوجة، رغم حالتها، كي يثيبه الله على عدم فضيحتها. وأملًا في أنْ تعيش معه في سعادةٍ وهدوءٍ وسلام، وعفا الله عمَّا سلف، وبذا تحفظ له هذا الجميل العظيم ... ولكنها، ما إنْ أنجبَت، حتى انقلبت إلى وحش كاسر، تُزعجه بطلباتها المرهِقة، وتُعيِّره بعجزه عن الكسب، وتلعنه وتلعن أولاده، وتلعن اليوم الذي تزوجته فيه، وكان بوسعها أنْ تتزوج سيد سيده. لعَنَته؛ لأنها اضطرت في وقت ما أنْ تعمل في مخبز كي تُنقِذ المركب الغارقة، ولم يكن زوجها يعلم بذلك، إذ كانت تتغيبُ عن البيت في الوقت الذي يكون عليٌّ فيه في عمله.

وهكذا نشأ الأولاد في جو مشحون بالشجار، مملوء بالسباب، وزاخر بالشقاق وعدم الوفاق أو الاتفاق ... وبذا تَعلَّم الصغار طول اللسان، فنفر

منهم أولاد الجيران، ولم يصادقهم أحد؛ لئلا تصيبهم العدوى، وبذا وجد أولاد عليٍّ أنفسهم معزولِين تمامًا عن المجتمع، دون صديق ولا حبيب.

ما هي إلا فترة قصيرة، حتى جاء من يَهمِس في أذن علي، بأن زوجته على علاقة آثمة بصاحب مخبز، وتلتقي به في وكر غرامهما.

في البدء، تلقَّى عليٌّ هذا الخبر ببرود، وكأن الأمر لا يعنيه؛ لأنه لم يصدق ما سمعه ... لم يتصور أنَّ الأمر يصل بزوجته إلى هذا المدى البعيد اللامعقول؛ إذ هي أم لثلاثة أطفال.

ولكن الرائحة فاحت، وغدَت سِيرة زوجته مع صاحب المخبز، على كل لسان ... فتذكَّر أنها اختلقَت له حكاية ذلك الشاب الذي سلَبها بكارتها ... مَن يدري؟ ... ربما فسقت قبل الزواج آلاف المرات مع المئات من راغبي المتعة الحرام، فمن شبَّ على شيء، شاب عليه ... فصمَّم على أنْ يفاتحها في هذا الموضوع. فقال لها عند أول لقاء: ما هذا الذي تَلُوكه ألسِنة الناس عنك، يا سمية؟

– لستُ أفهم ما تقول، ولا أعرف قصدك.

– الناس يقولون بسيرتك، بما يندَى له الجبين.

– وما دخلي أنا مع الناس؟

– يقول الناس إنك على علاقة بصاحب مخبز.

– ليتَ كلامهم يغدو صحيحًا.

– يغدو صحيحًا؟ هذا يعني أنكِ لا تجدين أي عار يلحقُكِ أو يلحقني.

– صاحب المخبز أفضل من عامل نجار حقير لا يجد لقمة العيش.

– إذن، فأنتِ على علاقة بصاحب مخبز.

– صاحب المخبز هذا، أحسن منك ألف مرة. وأنا أنوي أنْ أتزوجه؛ لأنه رجل ثري ومحترَم، ويملأ العين تمامًا ... أما أنتَ بالنسبة له، فمجرد هلفوت.

– ستتزوجينه بعد أنْ تطلقيني، طبعًا.

– هذا صحيح ... طلِّقْني بالتي هي أحسن، وأنا أبرئك من مُؤخَّر الصَّداق، ومن كل شيء، في نظير أنْ أرى يومين سعيدين في حياتي ... كانت كل حياتي معك شقاء في شقاء.

– وهل تهون عليك عِشرة السنين التي عشناها معًا؟

– ماذا رأيتُ معك في تلك السنين، غيرَ النكد والفقر والحرمان ... ستهون ... بمجرد أنْ أبتعد عن وجهك القبيح ... هل تظن نفسك رجلًا؟ أنت حثالة الرجال ... خلِّصْني، وابتعِد عنِّي.

– والأولاد؟

– بلهم واشرب ماءهم، فلا أهمية لهم عندي. بعد رأسي ما تطلع شمس. سعادتي بالدنيا كلها.

– أتقولين هذا، يا فاجرة، يا عاهرة؟

قال عليٌّ ذلك، وأخرج السكين التي كان قد أعدها، وشحذَها، وأخفاها بين طَيَّات ملابسه لمثل هذا الموقف ... فانهال بها على صدر زوجته طعنًا مثلما رأى في الحلم، ولم يتركها إلا بعد أنْ لفظت آخر أنفاسها.

وهكذا تحقَّق الحلم الذي رآه عليٌّ، وأصبح حقيقة واقعة. وحُكِم على عليٍّ بالسجن المؤبَّد.

الفصل الحادي عشر

القلب الممزق

تخرَّج ممدوح في الجامعة وشغَل منصبًا مرموقًا يحسدُه عليه زملاؤه الذين تَخرَّجوا معه. وكان وسيم الوجه حسن الخلق، أدَّبه أبوه الثَّري فأحسن تأديبه وكان فوق هذا محبًّا للخير، يعطف على كل مُحتاج ويمد له يد المساعدة من ماله الخاص، رغم أنَّ والده كان يطلق يد ممدوح هذا في جميع أمواله؛ إذ كان ابنه الوحيد، وقُرَّة عينه ويحبه أكثر من أخته الوحيدة.

ذات يوم التقى ممدوح بصديقه الحميم عادل، وكان ممدوح مهمومًا مُشتَّت الفكر، فأسرَّ إلى عادل بمكنون صدره وما يبلبل تفكيره، فقال: أنا في حيرة من أمري، يا عادل!

– ولِمَ الحيرة، يا ممدوح؟

– قلبي مُمزَّق بين مُنى المصرية، وأمينة المغربية.

– ومن تكون مُنى هذه، أولًا؟

– جارتي الحلوة، التي تعلَّق بها قلبي منذ زمن طفولتنا معًا ... أمها صديقة أمي ... تتزاوران كثيرًا. كما أنَّ أختها صديقة أختي. وعلاقة أسرتها بأسرتنا طيبة جدًّا، حتى ليكاد مَن يعرفنا، يظننا أسرة واحدة.

– وهل أفهم من هذا، أنك أحببتَ مُنى وهي صغيرة السن؟

– تستطيع أنْ تقول ذلك ... وما يؤرقني ويشغل بالي، أنها اشتغلَت بشركة الطيران اليمنية، وعرفَت طريق السفر والتغيب في البلاد الأجنبية والشقيقة، خارج مصر، وبعيدًا عن أسرتها، وتعرَّفَت بشاب فلسطيني عرَض عليها الزواج.

– وماذا تريد منها، يا ممدوح، بعد انصرافها عنك، وعلاقتها بذلك الشاب الفلسطيني؟

– قلبي متعلِّق بها من زمان، كما قلت لك، ولا أستطيع أنْ أنساها أو أنسى الأوقات الجميلة التي أمضيتها معها ونحن في خلوة تامة، سواء بالمنزل، أو في الفنادق الكبرى، لا نشبع من القُبلات والأحضان والعناق ... الجلوس معها متعة بالغة، كما أنها استطاعت أنْ تتسلل إلى قلبي من جميع أبوابه ونوافذه ... وشاركتني طفولتي، وروَّحت عن نفسي وشغلتني عن جميع الدنيا المحيطة بي بمن فيها وما فيها. فكنا نلعب معًا «الاستغماية»، وبورق اللعب ... ثم راحت تكبر أمام نظري ... وفجأة وجدتُها كاعبًا، فاتنة جميلة الطلعة جذابة المنظر بقوامها الممشوق، وحركاتها الرشيقة وهي تتهادى في مشيتها، ترنو إليها عيون الرجال والنساء أيضًا.

– وهل حدثَ بينك وبينها علاقة جنس؟

– كلا، البتة.

– صارِحْني، يا ممدوح ... فليس من المعقول أنْ تختلي بها في الفنادق الكبرى، ولا تنال منها سوى مجرد القبلات والأحضان. وكما يقولون: إذا اجتمع ذكر وأنثى في خلوة، كان الشيطان ثالثهما.

– الواقع، يا عادل، أنني كنت أخجل من التمادي معها زيادة على القبلات والعناق ... ولا أزيد على ذلك، إذ كنتُ آمل في أنْ أتزوجها.

– وهل وعدتَها بالزواج؟

– كلَّا، لم أعطها وعدًا صريحًا بالزواج، ولكن المفهوم أنها لي وأنا لها؛ لما بيننا من علاقة وطيدة منذ طفولتنا وبعدها إلى الآن. وزيادة على ذلك؛ الأهل أصدقاء، أمها صديقة أمي، وأختها صديقة أختي وعلى رأي المثل: «زيتنا في دقيقنا.» ... غير أنها منذ أنْ تعرفَّتْ بذلك الفلسطيني اللعين، تغيَّرتْ تمامًا، والتصقَت به، فلا تراها خارج عملها إلا معه، ولا تراه إلا معها. ومن غير المعقول أنْ أستطيع أخذها منه بأية وسيلة ... ليتني تماديتُ معها في خلواتنا الكثيرة. فلو حدث ذلك، ما فكرتْ في أنْ تتركني وتعشق غيري. لكني أردت أنْ أوضح لها أنَّ غرضي من حبها شريف، وكانت النتيجة كما أعلمتك، يا عادل.

– لا بد أنَّ هذا الفلسطيني شابٌّ لبق، يفهم معنى الحياة، ومن أين تُؤكلُ الكتف، فجذبها إليه بأن عرض عليها رغبته في الزواج بها. وكل فتاة لا تنشد لمستقبل حياتها، أفضل من الزواج وإنجاب الأطفال ... وجدت مُنى في ذلك الفلسطيني الجرأة على الطلب. وكما قيل: فاز باللذة الجسور ... أما، أنتَ يا ممدوح فتركتَ الأمور على عواهنها مستندًا إلى المفهوم، فأحسَّت مُنى بأنك تلعب بعواطفها ولا تريد منها سوى تمضية الوقت فيما تعتبره هي «عبثًا»، أو لذة عابرة لا ترقى إلى درجة الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة كان لا بد أنْ تَضرب الحديد وهو بارد، وتنتهِز الفرصة لئلا تصير غُصَّة. وهذا هو عين ما حدث لك بالضبط، يا ممدوح، على أية حال، لا فائدة الآن من هذا الكلام.

– الواقع، يا عادل، أنَّ مُنى أخطأَتْ خطأً جسيمًا بأن سمحَت لنفسها بالتعرُّف بذلك الفلسطيني وأعطتْه فرصة أنْ يعرض عليها الزواج ... إنني أعتبر هذا إعلانًا منها بأنها ما عادت تحبني.

– ماذا تنتظر من فتاة تعيش بعيدًا عن أهلها وبلدها وعاشقها، وتركب الطائرات كل يوم، وتنتقل من بلد إلى آخر، ومن قُطر إلى قُطر، ولا بد لها من أنْ تحتك بهذا وبذاك، وتبتسم لكل شخص. وفي هذا الاحتكاك أعظم خطر على عواطف الفتاة. وأنت تعرف أنَّ الاحتكاك يولد الحرارة ويشعل النار، ومُنى فتاة في دور المراهقة.

– لم تَعُد منى صغيرة السن أو مُراهِقة ... فهي في الرابعة والعشرين، تدرك كل شيء وتستطيع أنْ تزن الأمور بميزان دقيق، وتميِّز بين الصالح والطالح؛ وبين الطَّيش والحلم وتعرف أَفَنَ الرأي من صِحَّة الحكم.

– كل فتاة في مثل سنها، تبتغي الزواج، حتى لا يفوتها القطار، وخير البر عاجله.

– ومن قال لكَ إنني لا أخاف أنْ يفوتني القطار، أنا أيضًا؟

– صدقت، يا ممدوح إذ أعلم أنك في الثلاثين الآن. وكان لا بد أنْ تتزوج من خمس سنوات على الأقل. ولو فعلت لما وقعت في هذا المأزق، ولما حِرت هذه الحيرة. والزواج عماد الدين، وأنت والحمد لله شاب خيِّر وعلى خلق كريم.

– هذا صحيح، ولا فخر، فذات يوم اتَّصلَت مُنى بي تليفونيًّا، من اليمن، وأخبرتني بأنها قادمة إلى مصر، وحدَّدَت لي الميعاد بالضبط. فذهبت لأستقبلها وأرحب بها في المطار ... فإذا بها مريضة بالغدة الدرقية التي

يسمونها «أبو كعيب». فنقلتها من فوري إلى مستشفى مناسِب حيث عُولِجت من ذلك المرض الوبيل، ومكثَت بالمستشفى عشرة أيام، كنت أزورها فيها يوميًّا. وتكفَّلتُ أنا بفاتورة المستشفى التي بلغت قرابة ألفي جنيه، علاجًا وإقامةً وعقاقير ... دفعت ذلك المبلغ عن طيب خاطر؛ حبًّا فيها، ولكي أشعرها بأنها ما زالتْ غالية عندي وذات مكانة سامية في قلبي.

– نعم، يا ممدوح. يدل عملكَ هذا على منتهى الشهامة، ولو كنت مكانها، لحفظت لك هذا الجميل في قلبي، ولاعتبرت هذه اللفتة بداية علاقة جميلة، لها طابع يختلف عن العلاقة السابقة.

– كل ما فعلَتْه مُنى، ناكرة الجميل، هو أنْ شكرتني بالتليفون، بعد أنْ عادت إلى عملها باليمن.

– إلى هنا فهمتُ كل شيء عن مُنى، وعن علاقتك بها من كل ناحية، وحبك إيَّاها وشعورها نحوك ... ولكنكَ ذكرتَ أنك على علاقة بأمينة المغربية ... فما قصتك معها؟

تعرَّفتْ والدتي بوالدة أمينة، ونحن في السعودية، نؤدي العمرة ... وإذ كان الوقت صيفًا، والحرارة هناك على أشدها، أُصِبتُ بضربة شمس ألزمتني الفراش هناك. فلازمَت أم أمينة أمي، وساعدتها في تلك المحنة؛ إذ كنتُ في حال يرثى لها، من تدهور الصحة.

– أفهم من هذا، أنك لم تبصر أمينة، ولم يقع نظرك عليها، ولم تعرف ما إذا كانت جميلة أو غير ذلك. وإنما والدتُك هي التي أبصرَت والدتها، فلما علمتَ أنَّ لصديقة أمك ابنة، اسمها أمينة ... أحببتها على الرائحة، كمن يشتري سمكًا في البحر.

– تراسلنا في البدء ... وأرسلتُ إليها صورتي وبعثَت إليَّ بصورتها ... وجدتُها فتاة جميلة بحق، جذابة الملامح والتقاطيع، متناسقة أعضاء الجسم. وعلمت أنها تتقن اللغة الفرنسية، من أسرة مالكة ذات ثراء واضح ... وقد أنهَت دراستها الجامعية، وما زالتْ في طريقها إلى مواصلة التعلم في فرنسا.

– هل معنى هذا، أنَّ ثراء أمينة هو الذي استهواك، وأغراك على أنْ تترك مُنى، حبيبتك الأولى منذ الصغر؟ وإني لأفهم أنَّ حبك منى لم يكن من القلب كما تدعي ... إنك، يا ممدوح كالفراشة التي تنتقل من زهرة إلى زهرة، لتمص رحيق هذه وتلك، ثم تنسى كلتيهما.

– لقد صرفتُ النظر عن مُنى، خصوصًا بعد قصتها التي أخبرتني بها شقيقتي.

– وماذا أخبرتك شقيقتك؟

– كانتا معًا عند «الكوافير»، وإذا بمنى تداعب الحلاق، وكان شابًّا وسيم الطلعة ... داعبته بطريقة تمجها النفس، وبألفاظ تقشعر لسماعها الأذن. تتبادل معه النكات باستهتار وميوعة لا يليقان بفتاة مثلها. وكلنا نعلم حكاية «الكوافير» مع زوجة شخصية مرموقة في مصر. إذ تركت زوجها العظيم، وأولادها الثلاثة، ومن بينهم طفل لم يكتمل سنة واحدة من عمره، وذهبت مع ذلك الحلاق إلى بلد أجنبي، عاشا معًا هناك عيشة حب جارف ... فلما أبصرت أختي ما يدور بين مُنى وذلك الحلاق. تركَت محل الكوافير على الفور، وعادت بمفردها إلى المنزل، تاركةً مُنى تلهو مع الكوافير كما يحلو لهما.

– ولهذا فكرتُ في العثور على فتاة أخرى تحل محل مُنى، ووجدتُ الخلاص في أمينة.

– وهذا هو ما جعلني أتكبد نفقات السفر إلى فرنسا، كي ألتقي هناك بأمينة، وأراها رؤية العين؛ فوجدتُ منها كل ترحيب وتقدير وكرم، أمضيت في صحبتها أربعة أيام كاملة، فتعلق بها قلبي. كما لقيت الحفاوة البالغة من شقيقتها المتزوجة في فرنسا، ومن زوجها.

– وهل فاتحت أمينة في أنك تريد أنْ تتزوجها؟

– نعم، ووجدتُ منها قبولًا وموافقة، ولم يبق بعد ذلك سوى موافقة الأهل.

– ولماذا، والحالة هذه، تقول إنك حيران وقلبك ممزق. طالما استقرَّ قلبك على أمينة وحزت موافقتها؟

– بعد عودتي من فرنسا. وأنا أكاد أطير فرحًا وطربًا. تلقَّيتُ من أمينة خطابًا، تناشدني فيه أنْ أصرف النظر عن موضوع الزواج، ونبقى أصدقاء ليس غير. هنا ابتأَس قلبي، واغتمَّ فؤادي وطار النوم من عيني ... أصبحتُ كالغريق الذي تحطمت سفينته وظل طافيًا على سطح الماء بعيدًا من الشاطئ، لا يَعرِف له برًّا يرسو عليه ... فحدثتْنِي نفسي بأن أعود إلى مُنى صاغرًا ذليلًا. وعلى حد قولهم: من ترك قديمه تاه ... والواقع أنني تائِه، يا عادل ... أنا بين نارين، ممزق القلب، مبلبل الفكر ... أعتزم ترْك مصر؛ لأعمل في بلاد الغُربة، كي أنسى آلامي وهمومي وأحزاني وعذابي. أنا الآن حائر، وقد تُفضي بي الحيرة إلى الانتحار.

الفصل الثاني عشر

لكلِّ مجتهد نصيب

نشأ ماجد في بيتٍ قوامه العلم والدِّين، وكان أصغر إخوته وأخواته، وحَظِي بحب والديه وجميع أعضاء أُسرته، وكان المفروض أنْ يشب ماجد غلامًا مفسودًا بسبب كثرة «الدلع» والحب الشديد الذي لَقِيه من والديه، وسائر أفراد عائلته العشرة ... ولكن الله سلَّم.

ما إن التحق ماجد بالمدارس حتى تلاشت نغمة التدليل، وحلَّت محلها الصراحة والشدة من أبيه ... يضربه بغير رحمة إذا ما توانى في عمل واجب مدرسي، أو أتاه بكراساته، فوُجِدَت الدرجات التي حصل عليها دون المستوى المنشود.

كثيرًا ما تشاجرَت أم ماجد مع أبيه من أجل قَسوته على ابنه الأصغر هذا، خصوصًا كل يوم خميس وجمعة عندما يتفرغ الأب تمامًا لمراجعة الدروس مع ماجد؛ إذ يريد الأب لابنه هذا أنْ يكون متفوقًا في دراسته كإخوته الأكبر منه، ولا يريد له الضياع في متاهات الدنيا دون سائر أشقائه؛ إذ كلهم ناجحون في المدارس والجامعات، ومنهم مَن تخرَّج طبيبًا مرموقًا يُشار إليه بالبنان، ويجري ذِكْرُه على كل لسان؛ لأنه من الأطباء العالَميِّين في تخصُّصه وهو أمراض القلب. ومنهم من كان في بعثات إلى أمريكا وإنجلترا.

تفوَّق ماجد في دراسته كثيرًا؛ إذ نشأ في بيت شِعاره «من لا يكون دكتور ... فهو طور»، أي بحذف المقطع «دك». يبدو أنَّ أباهم وضع في ذهنه قول أبي فراس الحمداني:

نحن قومٌ لا تَوسُّط بيننا   لنا الصَّدْر دون العالَمِين أو القبر

وكان لا يتنازل عن هذا الشِّعار السامي، مَهما يحدث في الدنيا، ومَهما تكن الأسباب. فإذا دخل ماجد امتحانًا وكان ترتيبه الثاني بين جميع أترابه في فِرقَته، أقام أبوه الدنيا وأقعدها، وانهال على ماجد يبكته بقوله: في أي شيء يمتاز عنك ذلك الطالب الذي كان ترتيبه الأول؟ هل له عقلان ولك عقل واحد؟ ... هل يستذكر دروسه في مصباح كهربي، وأنت تستذكر في مصباح بترول؟ ... هل يأكل لحمًا وفاكهة، وأنت تأكل فولًا وبصلًا؟ ... هل ينام على حشية طرية فوق سرير، وأنت تنام فوق البلاط على حصير؟ ... هل ... هل.

كان هذا الأسلوب القاسي هو ما شبَّ عليه ماجد في حياته الدراسية، ولكن، للأسف الشديد، لم يحقق ماجد لأبيه رغبته في أنْ يلتحق بكلية الطب، بل دخل كلية الزراعة. فحلَّ على الأسرة كلها نكد الدنيا بأَسْرِها، ومَرِض الأب حزنًا على مستقْبَل ولده ماجد، الذي خيَّب أمله فيه، بل وأمل الأسرة كلها في أنْ يكون الطبيب السابع في العائلة.

وما زاد الطين بلة، أنَّ ماجدًا فشل في كلية الزراعة، وعجز عن استيعاب المحاضَرات والدراسة العملية في المعمل وفي الحقل.

وهكذا ضاع عام من حياة ماجد سُدًى، وانتقل بعده إلى كلية الآداب، قسم الدراسات القديمة. وهو قسم لم يعلم ماجد عنه أي شيء، ولكنه كان سعيدًا

بالتحاقه به هربًا من دراسة مواد الزراعة التي لم تُمتعه ولم تجذب اهتمامه.

لمَع اسم ماجد في هذه الدراسات الجديدة عليه وراح ينجح فيها بتفوق، عامًا بعد عام حتى تخرَّج بامتياز وعُيِّن معيدًا بنفس الكلية، ولكن همته لم تقف إلى هذا الحد، بل أخذ يستعد للحصول على درجة الماجستير.

وهكذا استطاع ماجد أنْ يُسعِد قلب أبيه بعض الشيء، ونسي الأب آلام الماضي، وشجَّع ولده على المُضِي قدمًا في الدراسة والبحث من أجل الحصول عن الماجستير.

رغم ما كابده ماجد من إعمال الفكر وإدمان السهر، ومواصلة الليل بالنهار لكي ينال لقب «أستاذ» كي لا يقلَّ شأنًا عن إخوته الأطباء، فقد جاء اليوم الذي مثل فيه أمام اللجنة، وناقشته مناقشة عويصة، وحاسبَتْه حساب الملكين، فإنه عاد إلى أبيه وهو يحمل رسميًّا، لقب «أستاذ» بالفم الملآن.

استعدَّ صاحبنا هذا بعد ذلك للحصول على الدكتوراة في الدراسات القديمة التي استحوذَت على عقله وكيانه، وشغَلَت جُلَّ وقته، لدرجة أنه كرَّس بعض وقته الثمين لتأليف كتاب باللغة العربية، لتعليم اللغة اليونانية القديمة، أبدع فيه كل الإبداع، ووضع فيه ثمن معلوماته عن تلك اللغة وآدابها … ونجح في نشره، فدرَّ عليه ربحًا وفيرًا.

ما إنْ ظهر هذا الكتاب في الأسواق، حتى حمل ماجد نسخة منه أهداها أباه، مما جعل الأب يزهو ويفخر بولده ماجد، الذي لم يرض الله — جلَّت حكمته — أنْ يلتحق بكلية الطب، بل أعده ليبرز في ميدان الأدب.

واصل ماجد جهوده في مجال التأليف، ووضع كتابه الثاني والثالث. ووجد سعادة بالغة في إهداء أبيه كتابيه هذين، كما فعل في الكتاب الأول.

وهكذا غيَّر أبوه ما رسخ في ذهنه من أنَّ الذي لا يصل إلى دكتور فهو ثور.

مات الأب سعيدًا، مطمئنًّا على مستقبَل ابنه الأصغر، ولو عاش ذلك الأب إلى اليوم، لما صدَّق أنَّ ولده هذا، الذي لم يدخل كلية الطب، استطاع في مدى أربعين عامًا، أنْ يكتب ويؤلف أكثر من مائة وثلاثين كتابًا في مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون، وذاع اسمه في الأوساط الأدبية، وأصبح كل فرد في جمهورية مصر العربية يعرف من هو ماجد هذا، ويُعْجَب بنشاطه جميع الكُتَّاب.

عشق ماجد مهنة التدريس، فكان يعلِّم اللغات القديمة بجامعة القاهرة. ثم تركها وسافر إلى السودان، حيث اشتغل مدرسًا للغة الإنجليزية في مدارسها الثانوية، وفي المعاهد العليا، ثم هاجر إلى كندا ... وهناك التحق بإحدى جامعاتها كطالب من جديد حتى تخرج فيها، وحصل منها على مؤهل يخوِّل له حق تدريس اللغة الإنجليزية في كل بلد يتكلم أهله اللغة الإنجليزية.

بعد ذلك عاد ماجد إلى مصر وطنه العزيز الذي عاش فوق أرضه، وتنسم هواءه، وشرب ماء نيله العذب، وتغذَّى بخيراته الوفيرة؛ فعمل أستاذًا للغة الإنجليزية بالجامعة الأمريكية، وظل يخدم المصريين، يعلِّمهم أصول اللغة الإنجليزية وآدابها، والتَّحدُّث بها بطلاقة، والترجمة منها إلى العربية، والعكس، وهو شامِخ الأنف، مرفوع الرأس والجبين.

تفرَّغ ماجد بعد ذلك إلى الترجمة والتأليف، فظهرت مواهبه فيهما بشكل واضح يحسده عليه كل المترجِمين والمؤلِّفين، وهكذا طار صِيتُه في دنيا الكتابة، ولم ينسَ أنْ يمد الصحف اليومية وغير اليومية بالمقالات القصيرة عن واقع الحياة وفي مضمار الآداب والعلوم والفنون ... ولم يلجأ في مقالاته هذه إلى التطويل والإسهاب مؤمنًا بأن «خير الكلام ما قل ودل.»

خلال السنوات الأربعين، التي ظل ماجد يكافح فيها مع العلم والأدب والقلم، ماتتْ أمه الحبيبة، ومات سِتَّة من إخوته وأخواته فحزن عيهم أشد الحزن وأمضَّه، وبكاهم بكاءً مُرًّا بدموع، لا أعتقد أنها جفَّت أو سَتجِف.

بارك الله الوهاب في الطريق الذي سلكه ماجد، وأوصله إلى ذروة المجد والسمو والرفعة، وبُعد الصيت، بالصبر والإيمان وقوة العزيمة، والعمل الدائب الشريف.

قال الفلاسفة والحكماء، في كل عصر: «لكل مجتهد نصيب.»

واليوم أقول: ما أصدق قولهم هذا، وما أصلحه، في كل وقت وحين.

الفصل الثالث عشر

الزواج القاتل

كانت سعادة الأستاذ منصور، عارمةً يمكن أنْ تتحدث عنها ولا حرج؛ إذ كانت تفُوق كل وصف، عندما تقدَّم إليه إبراهيم يطلب منه يد ابنته «نجلاء»، التي يحبها من كل قلبه؛ لأنها وحيدته، ولم يكن ينتظر لها زوجًا خيرًا من إبراهيم فهو ابن خالتها، وأصله معروف، فضلًا عن أنه يتصف بالرجولة والشهامة والخُلق الحسن، ومركَزه مرموق بعد أنْ تخرَّج في كلية الحقوق، وشغل منصب «وكيل نيابة».

رغم كل السعادة التي أحسَّ بها الأستاذ منصور فإن نجلاء لم تشعر بأي حب نحو إبراهيم؛ فهي تعرفه منذ طفولتها كأخيها، ولكنها لا تميل إليه من الناحية العاطفية.

كانت نجلاء هذه فتاة على قدر غير قليل من الجمال الطبيعي. هي اسم على مُسمًّى؛ إذ كانت عيناها نجلاوين بحق وتمتاز بغمَّازتَين أسفل وجنتيها عندما تبتسم، وبذا كانت تجذب إليها الشُّبان الذين لا يمكنهم مقاومة هاتين الغمَّازتين، وكانت نجلاء تتحاشى الابتسام كي لا تظهر الغمَّازتين. ولكن، رغم هذا، كانت تبتسم عن غير قصد، فتأسِر قلوب ناظريها من الذكور، وتنال إعجاب الإناث. وعلاوة على ذلك كانت رشيقة القوام، متناسقة التقاطيع، بَضَّة الجسم، خفيفة الظل، ناعمة الشعر الذهبي الطويل، تجيد

ارتداء ملابسها بصورة تدير نحوها رءوس المعجَبِين. لبقة الحديث لا يشبع جليسها من التمتع بكلامها الشيِّق في صوت موسيقي عذب.

رغم عدم ميل نجلاء عاطفيًّا إلى إبراهيم، فإنها لم تَشأ الخروج على طاعة أبيها ومخالَفة رأيه. ولم يدَّخر الأستاذ منصور شيئًا من ناحيته لإرضاء نجلاء فلبَّى جميع طلباتها وطلبات إبراهيم، وأنفق كل ما كان يدخره لهذا اليوم السعيد.

أقيم لنجلاء حفل زفاف، لم يشهد مثله شارع المنيرة في تاريخه الطويل، فصدحت الموسيقى بأحدث الألحان وأعذبها، ورقصت الراقصات على أنغام الآلات الوترية، وتفنَّن المُطرِبون في الغناء ... واستمر حفل الزفاف مبهجًا ممتعًا، حتى طلوع الفجر ... وتناول المَدعوون اللحوم والفطائر والحلويات، وشَربوا من أغلى أنواع المشروبات، ما شاء لهم أن يشربوا ويعبُّوا، وانصرف هؤلاء وهم معجَبون بالبذخ الواسع الذي أنفقه الأستاذ منصور في الاحتفال بزفاف ابنته نجلاء.

وهكذا، بدأت نجلاء حياتها الجديدة في شقتها الجديدة التي اشتراها لها أبوها، وأثَّثها بأفخم أنواع الأثاث والأجهزة المنزلية، ولم ينسَ أنْ يُقدِّم للعروسين سيارة B.M.W. هدية زواج.

استراح بال الأستاذ منصور من عبء نجلاء الذي كان يؤرقه ليلًا، ويشغل باله نهارًا. كان يهمه أنْ تستقر ابنته العزيزة نجلاء في بيتها الدائم مع زوجها، خصوصًا وأنها ابنته الوحيدة من زوجته التي خطفها المَنون يوم أنْ وُلِدَت نجلاء، فحزن على موتها حزنًا بالغًا، وآلى على نفسه ألا يتزوج بعدها، مؤثِرًا أنْ يتفرَّغ لتربية ابنته نجلاء الحلوة، لا سيما وأنها تشبه أمها في ملامحها، وغمازتيها الجميلتين.

ما هي إلا أسابيع قليلة، حتى عادت نجلاء إلى بيت أبيها غاضبة من زوجها إبراهيم، الذي تطاول عليها بالسب والصفع والضرب، كما سَب أمها وأباها ... كل هذا لأنها رفضت أنْ تستجيب لشذوذه الجنسي، فنفرت منه وأفهمته أنَّ ما رغب فيه مُحرَّم في جميع الأديان؛ ولذلك تركت له البيت كي لا يرغمها على ذلك الشذوذ قهرًا وبالقوة. وعادت إلى منزل أبيها تبكي بكاء الثَّكْلى بدموع غزيرة، وتندُب حظها العاثر، وتلوم نفسها على طاعة رغبة أبيها ... إذ لم ترض أنْ توصف بالعقوق، تجاه أبيها الذي يحبها كل الحب، ويسعى إلى إسعادها بكافة الطرق.

اغتم منصور لعودة ابنته الوحيدة مكسورة الخاطر، لم تسعد في حياتها الزوجية منذ بدايتها. ولم تُفصِح نجلاء لأبيها بالسبب الحقيقي الذي دعاها إلى الرجوع إلى بيت أبيها ولما يمض على زواجها شهر كامل، بل أفهمَتْه بأن إبراهيم يُسيء معاملتها واعتدى عليها بالسب والضرب لأتفه الأسباب، وبغير أسباب؛ لذا لا يمكنها الاستمرار معه. إنها تزوَّجت لتسعد في حياتها، لا لتشقى وتذوق الضرب الذي لم تذقه من أبيها نفسه طول حياتها.

غير أنَّ إبراهيم خشي أنْ تبوح نجلاء لأبيها بما يتصف به زوجها من شذوذ تأباه كل الشرائع فيشمئز منه كل مَن عرف عنه هذه المَنْقَصة. فأسرع بالذهاب إلى بيت حميه، كي يصلح ذات البين بينه وبين عروسه، فعادت نجلاء إلى بيت الزوجية بعد أنْ أقسم لها إبراهيم بأغلظ الأيمان على أنه ما عاد يسيء معاملتها. ووعدها سرًّا، بأنه لن يطلب منها ذلك الطلب الشاذ، وأكد لها أنه يحبها كل الحب ولا يمكنه أنْ يعيش بدونها أو يستغني عنها بأية حال من الأحوال.

حملت نجلاء، ففرح إبراهيم بهذه البشرى السعيدة، كما فرح الأستاذ منصور؛ لأنه سيصبح جدًّا تقر عينه بحفيد؛ إذ كما يقولون: «أعز من الولد، ولد الولد.» وزادت عناية إبراهيم بزوجته الحامل، يعرضها على الأطباء الفَيْنة والفَيْنة لكي ينمو الجنين في رحم نجلاء بانتظام، وتنمو عظامه شديدة قوية، ولا يصيبه أي تشوهات. كما يقررون لها مقدار ونوع الأغذية اللازمة ليتغذى الجنين معها بما يحتاج إليه ولتكون الولادة طبيعية غير قيصرية. وهكذا سارت نجلاء مدة الحمل حسب إرشادات الأطباء.

كثيرًا ما سأل إبراهيم الأطباء عن نوع الجنين، هل سيكون ذكرًا أم أنثى؟ ليفكر على مهل في الاسم الذي يختاره له، ولكن الطب لم يتوصل حتى الآن إلى معرفة جنس الوليد قبل أنْ يولد ويرى النور، أما الأستاذ منصور، فكان يقول: الخيرة فيما اختاره الله خالقه وباريه.

جاء اليوم الذي شعرت فيه نجلاء بآلام المخاض، فنقلها إبراهيم إلى المستشفى حيث عملت لها الاستعدادات اللازمة للولادة البِكْرية، وهكذا وضعت نجلاء بنتًا في غاية الحلاوة والجمال، ورثِت ملامح والدتها وجدتها لأمها، فجاءت «سنيورة» أَسْمَتها «رانيا». فعمَّت الفرحة قلوب الجميع. وكان سرور الأستاذ إبراهيم بابنته رانيا يفوق الوصف، وكذلك كانت غبطة الجد منصور، الذي كان قد أعد للمولود الملابس والأغطية والمَهد واللعب ومساحيق الألبان اللازمة لتغذية الطفل إلى جانِب لبن الأم، وكل ما يمكن أنْ يفكر فيه المرء للمولود.

كان إبراهيم قد نذر لله، إنْ ولدت زوجته رضيعها، وقامت بالسلامة، أنْ يذبح عجلًا كبيرًا ويقدم لحمه للفقراء. وهكذا فعل وبَرَّ بنذره.

تَوافد الزائرون يباركون للأم الوالدة وللأب وللجد السعيدين ... بيد أنَّ الفرحة لم تدم طويلًا. فبعد عشرة أيام من الولادة، أصيبت نجلاء بالحمَّى وارتفعت درجة حرارتها كثيرًا، وتعذَّر عليها أنْ ترضع الوليدة رانيا، فجاءوا لها بمرضعة سليمة الصحة كي لا تصاب رانيا بمرض.

أفصح الطبيب المعالِج عن حقيقة مرض نجلاء. إنه «حمى النفاس»، وصرح بأن نجلاء في طور الخطر. فنزل الخبر على إبراهيم ومنصور، نزول الصاعقة. وما هي إلا بضعة أيام، حتى ماتت نجلاء تارِكة وليدتها إلى مصيرها الغامض.

لم يحتمل الأستاذ منصور هذه الصدمة، فمات بعد ابنته بأيام قلائل، وهكذا تلاشت أسرة منصور على بكرة أبيها: الأب والأم والابنة، مات منصور حزنًا وكمدًا على ابنته الوحيدة نجلاء التي كان يجد فيها سَلْوَته، والتي من أجْلِها وأَجْل سعادتها لم يتزوج، مكتفيًا بنجلاء.

كان منصور هو السبب في زواج ابنته الوحيدة، قُرَّة عينه، كي يضمن لها الاستقرار، ويحقق لها السعادة والهناء، ولم يدرك أنه إنما كان يحفر قبرها بيديه، ولكن هذا قضاء العلي، ولا رادَّ لقضائه.

الفصل الرابع عشر

عندما يموت الحب

نشأ الحب العميق بين مُرسي وسعاد منذ الصغر ... كان هذا الحب هو الأول لكل منهما؛ إذ لم يعرفا الحب قبل ذلك، بل نشأ في قلبيهما عندما بدأت العاطفة تتسرب إلى نفسيهما. وبذا صار حبًّا صادقًا أمينًا، تغلغلت جذوره في التربة البِكْر داخل قلبيهما النَّقِيَّين، وكما يقولون: «صادف قلبًا خاليًا فتمكنا.»

إذا ما التقت سعاد بمُرسي، خفَق قلبها، وشعرت بالسعادة تغمر جسمها كله من أعلاه إلى أسفله، وأحسَّت بأن الحياة تبتسم لها، وتبدو حلوة أمام ناظريها، بلا مشاكل ولا مَتاعب.

اعتقد مُرسي أنه قد فاز من الدنيا بأغلى مَن فيها بعد أنْ عرف قلبه الحب قبل الأوان. لا سيما وأن سعاد كانت فتاة مَليحة الوجه، جذابة الملامح، ذات حُسن وبهاء، إذا سارت في طريق، سار خلفها طابور من المعجَبِين بجمالها وسحرها ... ولولا تشجيع سعاد مُرسِيًّا لما ذاق هذا الأخير طعم الحب اللذيذ النادر، الذي بادلته إياه سعاد. وكان أشد ما جذب اهتمام مرسي بسعاد، وغرس الحب في قلبه، لِحاظ عينيها الفاتنتين برموشها الطويلة السوداء.

مُرسي شابٌّ عِصامي، يكسب قوت يومه بعرق جبينه، عاملًا في مطبعة قريبة من بيت سعاد؛ لذا كان لقاؤهما يتم يوميًّا تقريبًا في الصباح الباكر، قبل أنْ يبدأ مرسي عمله، وفي المساء عقب انصرافه من المطبعة ... وهكذا كان إحساسهما بالحب يزيد ويتوطد، يومًا بعد يوم.

اختفت سعاد مدة يومين لم يرها فيها مرسي، فانخلع قلبه شوقًا وهلعًا … ثم ظهرت لتخبره بأنها خُطبت لابن أحد أصدقاء والدها المقرَّبِين إليه. ورغم معارضتها لهذه الخطوبة، فقد أجبرها أبوها على قبولها، ضاربًا عُرض الحائط بما قدَّمَته من اعتراض وعراقيل. لم تستطع سعاد أنْ تصارح أباها بحبها مرسيًّا، حبًّا شديدًا جارفًا، خشية أنْ يمنعها لقاء مرسي أو مجرَّد الكلام معه.

بكت سعاد بدموع سخينة، كما بكى مرسي وانتحب. وأقسمت سعاد لمرسي، على أنها لن تتزوج زغلولًا الذي تمَّت خطبتها له بغير رضاها.

أفلحت سعاد في فسخ خطبتها إلى زغلول، فطاب الجو لسعاد ومرسي، من جديد. فزاد تعلُّق مرسي بحبيبته سعاد؛ لأنها آثرته على الذي كاد يتسلل إلى حياتها عن طريق أبيها.

غير أنَّ هذه الفترة السعيدة لم تطل، إذ ما لبثت سعاد أنْ خُطِبت لابن عمتها محمود؛ فعادت سحب الكآبة والغم تُخيِّم على سعاد ومرسي. وما زاد الطين بلة، أنَّ أباها كتَب كتابها رسميًّا على محمود، ومع ذلك استطاعت سعاد أنْ ترفض زفافها إلى محمود وانفصلت عنه. كل مرة تخطب سعاد، تعمل على فسخ الخطبة بشتى الأسباب والمعاذير، وبذا تُبرهِن بالدليل القاطع لمرسي على أنها لن تحب أحدًا سواه، وأن حبها إيَّاه صادِق ومن أعماق القلب. وتضاعف من يقينه بأنها تفضله على كل رجل آخر.

ظلت سعاد تُخطَب وتفسخ خطوبتها إلى أنْ بلغ عدد مَن خطبوها خمسة. حتى حار أبوها في أمرها، وأخيرًا أدرك بسليقته أنها لا بد على علاقة غرامية بشاب تؤثره على سائر الشبان، ولا تريد أنْ تتزوج غيره. فلما

خطبها أشرف، أسرع أبوها بأن عقد عقدها الشرعي كما أسرع بزفافها إليه. وهكذا وقع «الفاس في الراس».

لم يكن الزفاف سرًّا، ولا في بلد بعيد، وإنما كان في بيت العريس، بنفس الحي الذي يقع فيه منزل والد سعاد، وتقع فيه المطبعة التي يعمل بها مرسي، وبذا عرف هذا الأخير كل شيء، فدارت به الدنيا، وتأكد أنَّ الحب بينه وبين سعاد، قد أصيب بالضربة القاضية. فمرض مرضًا شديدًا حتى وصل إلى حافة القبر، ولكن العناية الإلهية أنقذته من هذا المرض الخطير الذي كاد يودي بحياته، وكان مرضًا نفسيًّا أكثر منه عضويًّا.

عاد مرسي إلى عمله، فإذا بسعاد تنتظره عند باب المطبعة التي يعمل بها، وتبتدره بقولها: سلامتك يا مرسي. ألف سلامة. سمعت عن مرضك، وعن شفائك منه بعون الله وفضله، وأنك الآن بسلامة وعافية.

– كل هذا بسببك، يا سعاد.

– لم يكن زواجي برضاي، يا حبيبي الغالي، وإنما أُجبرت عليه إجبارًا ولم أجد فرارًا منه؛ إذ ضيَّق أبي الخناق عليَّ، حتى تم الزواج.

– هل أفهم من هذا، يا سعاد، أنكِ ما زلتِ تحبينني كسابق عهدنا معًا؟

– هو ذلك، يا عزيزي مرسي. ما زال حبك متغلغلًا في نفسي وقلبي وعقلي ... أفكر فيك ليل نهار. وصورتك تمثل أمام عيني لا تبارحها ... أريدك، يا مرسي، ولن أجد متعة مع أحد غيرك. أنا تربية يديك ... أنت الذي علمتني فن الحب، وكيف يكون الحب، منذ الصغر ... نشأت وكبرت على يديك، ونشأ حبي إيَّاك وتعمَّق على يديك أيضًا. أنت بالنسبة لي أغلى

شيء في الدنيا، لا يهدأ لي بال، ولا يهنأ لي خاطر إلا إذا كنتُ بجواركَ يا مرسي، أنتَ الشاب الوحيد الذي أحبه وأهواه.

– إذن، فلماذا وافقتِ على أنْ يُكتَب كتابك على أشرف؟ وكيف قبلت الزفاف؟

– وهل عرفتَ اسمه؟

– الذي يسأل، يعرف كل شيء.

– لقد أجبروني على هذه الزيجة … ومع ذلك، فأنا على أتم استعداد لأنْ أهرب معك، ونعقد زواجنا في قسم الشرطة.

– هذا رأي لا يمكن تنفيذه؛ فأنتِ الآن على ذمة أشرف، ولا يمكن أنْ تتزوجي غيره، في قسم البوليس، ولا في أي مكان آخَر بالعالم كله، إلا إذا حصلتِ أولًا على الطلاق من أشرف، ثم تتربصين بنفسك بعد ذلك ثلاثة قروء، ربما تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر … كل هذا قبل أنْ تستطيعي الزواج بأي شخص آخر.

– سأنكد عيشة أشرف، وأريه الشمس شمسين، والقمر قمرين، ولا أنيله مِنِّي وطرًا، فيضطر إلى أنْ يطلقني، وبذا أستطيع أنْ أتزوجك، يا حبيبي العزيز، مرسي.

– ولكنني لن أتزوجك، يا سعاد … أنا شاب بكر، لم أطلع على أية امرأة. إذن، فلا بد أنْ أتزوج فتاةً بكرًا عذراء، لا فتاة متزوجة، ليست «سكند هاند».

– إذًا، فخلِّصني من أشرف.

– كان هذا بودي، يا سعاد، ولكن لا تنسي أنني سبق أنْ خلّصتك من محمود بعد أنْ فعل معك فعلته الشنعاء.

– وما لزوم العودة إلى سيرة محمود، الآن؟

– هل يمكنني أنْ أنسى محمودًا، وما أتاه معك، وأنتما في خلوة؟

– نعم، فعل محمود معي ما لا أحب، بعد أنْ أيقن من أنني لن أنيله غرضه مِنّي. فأخذني إلى الشقة التي ستكون بيت الزوجية، وقدَّم لي شرابًا، ما إنْ شربته حتى غِبتُ عن وعيِي؛ فاعتدى عليَّ، وأزال بكارتي، فلما أفقْت من المخدِّر، أدركتُ ما حدث فصرخَتْ وولْوَلتُ، فقال إنه لا فائدة من الصراخ؛ إنه لم يفعل شيئًا محرمًا، بل هو حلال في حلال بصفته زوجي الشرعي، وسيعاشرني معاشرة الأزواج إنْ عاجلًا أو آجلًا، وعلى أية حال، عملت العملية وخِيط الغشاء الذي مزَّقه، وبذا أصلحتُ ما أفسده.

– إذن فاحمدي ربك إذ قَبِلَ أشرف أنْ يتزوجك، ولو علم أنكِ لست عذراء، لعدل عن زواجك.

– أفهم من هذا أنك تهددني، يا مرسي؟

– اطمئني تمامًا، فلن أبوح بسرِّك لأي شخص، وإنما أكتمه في نفسي، وأحاول أنْ أنساه كي لا تهتز صورتك في قلبي.

– ما حدث من محمود، حادث سيئ، تعرضتُ له، ولولا حرص والدتي على عدم الفضيحة، لأبلغَت البوليس ضده، وأدخلَتْه السجن.

– هذا مجرد وهم وخيال، يا سعاد ... إذ كيف يدخل محمود السجن على أنه فض بكارتك، وهو زوجك الشرعي، ومن حقه أنْ يفعل ذلك الشيء في أي وقت يشاء.

– يفعله برضاي، وبحسب الشرع، وليس بإعطائي مخدرًا، وينال مِنِّي بُغْيَته وأنا لا أدري ولا أشعر، هنا الجريمة.

– على العموم، خليك مع زوجكِ أشرف، واعتبري علاقتي بك، كأن لم تكن.

– ما هذه النغمة الجديدة جدًّا، يا مرسي؟

– لا أريد أنْ أكون سببًا في طلاقكِ من أشرف، حتى لا يُشاع بين الناس، أنني السبب في هذا الطلاق، من أشرف زوجك الثاني، وسيذيع أمرك بين جميع الأوساط، ولن تجدي من يتزوجك بعد ذلك، وأنت «ثيرد هاند» كما قلتُ لكِ قبل ذلك. وبذا يضيع منك «عشاء البرين».

– لجأ محمود إلى الحيلة لينال غرضه مني، ولكنه خرج من «المولد بلا حمص»، وفقدتُ أنا أغلى ما كنتُ أعتز به.

– وفقدْتِني، أنا أيضًا ... وكنتُ في يوم من الأيام أعز وأغلى من يسكن قلبكِ ... سلام، والله معك.

وهكذا ترك مرسي سعاد، والدموع تنهمر مدرارًا على خديها، وضاع حبهما إلى الأبد.

الفصل الخامس عشر

مصطفى وولده

خرج مصطفى من داره صباحًا، مُبلبَل الفكر، مُضطرب الذهن، مشغول البال والخاطر، زائغ البصر لا يدري ماذا يفعل إذا أصيب ولدُه «مأمون» بحالة تَسمُّم من وجبة «كسكسي»، اشتراها من بائع مُتجوِّل أغراه بندائه يقول: «يا بو اللباس السندسي ... قرب ودوق الكسكسي»، فأراد أنْ يذوق ذلك الصنف الذي لم يذقه قبل ذلك، فأُصيبَ بتَسمُّم من زنجار النحاس الذي طُبِخ فيه ذلك الكسكسي ... فطلب له عربة الإسعاف التي نقلَتْه إلى المستشفى حيث عمل له الأطباء غسيل معدة وعالجوه، فظل مصطفى مسهدًا طول الليل حتى عاد مأمون في اليوم التالي وحالته أحسن. فاطمأن مصطفى بعض الشيء، على صحة ولده مأمون الذي هو أغلى من عنده في الدنيا بعد ابنته الكبرى «شويكار».

رغم اطمئنان العم مصطفى على صحة ولده مأمون كان لا يزال حزينًا جدًّا بسبب حالة ابنه المُعوَّق «منير»، والمتخلِّف عقليًّا. وكان منير هذا مصدر تعاسة الأسرة كلها، ولا سيما والدته التي كانت تحمل من أجله عبئًا فوق طاقتها ... فكانت تصف ابنها هذا بأنه «عبيط»، حسب لغتها ... لا يستطيع أنْ يُميِّز بين الخير والشر، ولا بين الصالح والضار ... لذا يقتضي هذا الولد عناية خاصة، ليلًا ونهارًا؛ فربما أشعل النار في ملابسه وهو لا يدري، فيموت حرقًا، وربما قفز من النافذة فيموت مُهشَّم الجسم مكسور العظام. وربما شنق نفسه بالحبل الذي يلعب به مع أخيه الأصغر «علاء»،

ومع أخته شويكار. وربما لعب في مفاتيح المصابيح الكهربية فيصعق نفسه ... لا بد من مراقبته باستمرار خصوصًا بالليل لئلا ينهض من نومه ويخرج من البيت فتدهمه سيارة.

تحمَّلت «سناء» زوجة العم مصطفى هذا العناء المُضني رغم أنها حامِل في الشهر السابع، وقال الطبيب إنها حامل بتوْأَم، وسَتلِد طفلين؛ لذا يجب أنْ تستريح في الفراش وألا تبذل مجهودًا بدنيًّا كي لا تُجْهَض قبل إتمام شهور الحمل التسعة. فراح العم مصطفى يدعو الله أنْ تلد زوجته طفلًا واحدًا وليس اثنين، حتى لا يتضاعف عليه عبء النفقات. خصوصًا وأنه مريض بالذبحة الصدرية وبمرض السكر، ولا يستطيع أنْ يجمع بين عَمَلين لكسب المال اللازم للإنفاق على طفلين، فضلًا عن مُنير المُعوَّق وأخيه علاء، وأخته شويكار، وأمهم وجَدَّتهم، أسرة كبيرة مكونة من سبعة أفراد.

لذلك كانت مَتاعب العم مصطفى النفسية فوق ما يمكن للإنسان أنْ يتصور؛ فالعبء المادي عليه ثقيل خصوصًا وهو مريض بالسكر ويحتاج إلى علاج خاص، وأطعمة خاصة وخبز خاص، وعقاقير باستمرار طول حياته لا تتوقف لتعوضه عن الإنسولين التي تفرزه جُزُر لانجرهام في البنكرياس. وهذا يقضي على جزء كبير من راتبه الذي يتقاضاه من عمله لدى الحاج حسين، كسائق سيارة لنقل البضائع بين القاهرة ومختلف مدن الجمهورية. ولولا حُسن معاملة الحاج حسين له وإكرامه إيَّاه، لما استطاع أنْ يتحمل الصدمات المتوالية التي يلقاها في تربية أولاده، ولا سيما ابنه المعوَّق منير، أو في مجابهة متطلبات مرضه.

حمد مصطفى الله كثيرًا على نجاة ابنه مأمون من حالة التسمم التي تعرَّض لها، وآلى على نفسه أنْ يصلي ركعتين في كل صلاة من الصلوات

الخمس، زيادة على ما فرضه الخالق الوهاب. ولكنه لم ينس أيضًا ألمه الشديد بسبب ابنه منير المعوَّق، ولو أنه كان يضع في ذهنه فضل الله عليه؛ إذ عوضه بابنته شويكار، مولودته البكرية، التي شبَّت على حب أمها فتساعدها دائمًا في أعمال المطبخ لطهو الطعام وإعداد الوجبات وغسل الأواني والأطباق، علاوة على تنظيف البيت والأثاث، وغسل الملابس ورَتْقِها وإصلاح ما يتمزق منها أولًا بأول. وليس هذا كله بالعمل اليسير. وفضلًا عن مساعدتها والدتها، كانت تقضي وقتًا طويلًا في المساء لاستذكار دروسها وتأدية واجباتها المدرسية، وبذا كانت متفوقة دائمًا، وحصلت على الشهادة الابتدائية بامتياز، فكانت من العشرة الأوائل في المنطقة التعليمية التابعة لها.

بينما العم مصطفى عائد إلى بيته ظهرًا ليتناول وجبة الغداء مع أسرته، إذ سمع من بعيد صراخًا عاليًا آتيًا من شقته، فكاد يُصْعَق، وارتجفت رُكبتاه فما كان يستطيع أنْ يمشي إلا بجهد جهيد، يجر ساقيه جرًّا، حتى بلغ بيته وعرف أنَّ أمه ماتت. وكان مصطفى يحب أمه حبًّا جمًّا ويعمل باستمرار على إرضائها وكسب دعائها له، وهي تقيم معه بعد أنْ مات أبوه، وتزوَّجَت شقيقته، كما تزوَّج أخوه، واستقلَّا في منزليهما بعيدًا عن دار العم مصطفى، ولم يجد بدًّا من أنْ تعيش أمه معه، حيث تفانَى في إكرامها بأكثر مما يفرِض عليه دِينه.

دَفن مصطفى أمه وواراها الثَّرى، وحزن عليها حزنًا شديدًا، كما حَزِنت عليها زوجته سناء؛ إذ كانت تؤنسها في وحدتها أثناء غياب زوجها في عمله، وأولادها في مدارسهم، وكانت تحبها وتكرمها كما لو كانت أمها. وكذلك حَزِن عليها أولاد العم مصطفى إذ كانت تحبهم وتعطف عليهم وتحكي لهم «الحواديت» في كل ليلة وهم يصغون إليها في شوق وإعجاب.

بعد انتهاء مراسم الدفن والجنازة، حَمِد مصطفى رَبَّه إذ ماتت أمه وهو على قيد الحياة، ودفنها بنفسه، وكذلك على أنَّ الله خلَّصها من عذابها وآلامها؛ إذ كانت مصابة بالشلل وتقوم سناء، زوجته الوفية، بخدمتها علاوة على أعمال بيتها وخدمة زوجها وأولادها ... واعتبر أنَّ جزءًا من أعبائه قد خَفَّ عن كاهله بأمر ربه. وانخرط من جديد في مضمار الحياة والعمل.

غير أنَّ القدر كان لمصطفى بالمرصاد؛ إذ خرج ولده المُعوَّق منير متسللًا من البيت دون علم أمه، وذهب مع بعض أولاد الجيران، الذين اعتاد أنْ يلعب معهم في الشارع أمام منزله ... كان أولئك الأصحاب في طريقهم إلى النزهة على كورنيش النيل.

لمَّا وصل الأولاد إلى شاطئ النيل، عَنَّ لهم أنْ يسبحوا في هذا النهر العظيم العذب، ترويحًا للنفس، فحاول منير أنْ يجاريهم ويسبح معهم، ولكنهم منعوه وحذَّروه سوء العاقبة؛ لأنه لا يعرف السباحة، خصوصًا وأن السباحة في ماء النيل أصعب من السباحة في البحر المتوسط؛ لأن كثافة مياه البحر أعلى من كثافة مياه النيل، لما يحتويه ماء البحر من أملاح معدنية كثيرة.

ما إن ابتعد الأولاد عن الشاطئ وبلغوا وسط النهر، حتى صمَّم منير على أنْ يحاكيهم ويسبح في النيل مثلهم، فخلع ملابسه وألقى بنفسه في اليم، وما هي إلا لحظات حتى غطس منير في الماء إلى القاع ولم يظهر بعدها إطلاقًا ... لقد غرق منير قريبًا من الشاطئ ... غرق في شِبر ماء، كما يقولون، فانتشل البوليس النهري جثته، وطيَّر الخبر إلى أبيه العم مصطفى.

دفن مصطفى ابنه منيرًا، وحزن عليه حزنًا ممضًّا، وانطوى على نفسه عدة أيام يجتر أحزانه هو وزوجته، لموت ابنهما المسكين المُعوَّق. ولكنه تحلَّى بالصبر، ورضخ إلى إرادة ربه خالق السموات والأرض وما عليها ...

ولو علمتم الغيب لاخترتم الواقع، وقضاء أخف من قضاء. ربما أتته مصيبة أفدح من هذه، وربما تعذَّب هذا الغلام بعد موت أبيه وأمه دون وجود من يرعاه.

كان عزاء العم مصطفى، أنَّ ابنته شويكار قد أوشكت على الانتهاء من دراستها الثانوية، وأنها صارت فتاة جميلة جذَّابة المنظر معتدلة القوام، تُسَر لرؤيتها العيون. وعلاوة على ما وهبها الذي خلق فسوَّى، من فتنة وملاحة، كانت مطيعة لوالديها، مؤدَّبة ورقيقة، وتؤدي الصلاة والصيام بانتظام، وتعرف كل شيء في إدارة المنزل إدارة تامة، كذلك كان علاء، الابن الأصغر لمصطفى متقدِّمًا في حياته المدرسية، ويشهد له جميع أساتذته وأترابه بحسن الخلق والسلوك الحميد، والأدب الجم، والتواضع ومحبته زملاءه ومساعدتهم بكل ما يملك من وسائل.

ما إنْ حصلت شويكار على الشهادة الثانوية حتى عمَّ الفرح قلب أبيها وأمها، ونَسِيا مصابهما في موت منير ... وتضاعَف هذا الفرح عندما تقدَّم المدرس الذي كان يعطيها الدروس الخصوصية، يطلب يدها من أبيها العم مصطفى. فوافق الأب كما وافقت الأم على الفور؛ إذ كانا يعرفان أخلاق ذلك المدرس.

هكذا سُمِعت الزغاريد، لأول مرة، في دار العم مصطفى المتواضعة. وبعد بضعة أشهر، عُقِدَ عَقْدُ الزواج، وزُفَّت شويكار إلى الأستاذ جلال، وذهبت لتعيش معه في بيت أسرته مع حميها وحماتها اللذين أحبَّاها واعتبراها ابنتهما؛ إذ لم يرزقهما الله سوى جلال.

اشتدَّت العلة بالعم مصطفى ونال منه مرض السكر، وظهرت مضاعفاته التي أسفَرَت عن إصابته بالعمى بسبب الضغط العالي للدم، ففقد مصطفى

نور عينيه كلتيهما، لإهماله صحته وعجزه عن استشارة الأطباء وشراء الدواء.

عاد الهم والغم يعتصران الأسرة الصغيرة، وبكَت سناء وعلاء، كما بكى مأمون وشويكار، واستسلموا جميعًا إلى قضاء الله وإرادته، ولا رادَّ لقضاء الله.

كان مأمون يعمل في بلدة بعيدة، حيث يعيش مع زوجته. فلما رأى ما أصاب أباه مصطفى، وأقعده في عقر داره عاجزًا عن القيام بأي عمل يدر عليه ربحًا ينفق منه، آلى على نفسه أنْ يرسل إلى أبيه هذا ربع مرتبه في أول كل شهر، كما تكرَّم الأستاذ جلال بأن خصص لحميه مبلغًا شهريًّا يساعده على الحياة، أما علاء، أصغر الأبناء، فلم يجد بدًّا من أنْ ينقطع عن الدراسة، ويعمل ليعول أباه وأمه، بعد أنْ أَجبَر العمى والده على البقاء في البيت بدون عمل. وهكذا ذهب علاء إلى الحاج حسين ليساعده في إيجاد عمل له لديه أو لدى أحد معارفه.

رحَّب الحاج حسين بعلاء، وتحدَّث إليه ببعض كلمات تُذهِب عنه ألمه لِما أصاب أباه مصطفى، وألحقه بالعمل محل أبيه وبنفس مُرتَّبه. فشكره علاء على هذا الجميل والوفاء لوالده الضرير.

ما هي إلا سنوات حتى مات العم مصطفى بالذبحة الصدرية، وذهب إلى مثواه الأخير بعد أنْ قام بواجبه نحو أسرته خير قيام ... فلم يترك علاء أمه، وإنما بقي معها يواسيها ويعزيها. وكان يود ألا يتزوج كي يتفرَّغ للإنفاق على أمه وتلبية طلباتها واحتياجاتها. ولكنه وجد أنَّ أمه سيدة عجوز، لا تستطيع القيام بخدمة البيت وإعداد الطعام وغسل الملابس وما إلى ذلك.

فاضطر إلى أنْ يتزوج كي تقوم زوجته بخدمته وخدمة أمه العجوز، حتى تُقابل الرفيق الأعلى

وهكذا تزوَّج علاء ابنة خالته، وكانت فتاة متوسطة الجمال، لكنها على خلق كريم ومتدينة فعاشت معه ومع خالتها، تخدمها عن طيب خاطر وبإخلاص. لا سيما وأن أمها، خالة علاء، كانت توصي ابنتها دائمًا، بالعناية بحماتها وخدمتها.

أنجبتْ زوجة علاء ذكرًا وأنثى توأمَين، سماهما باسم أخيه مُنير، وأخته شويكار، وظل بارًّا بوالدته حتى دفنها بنفسه.

الفصل السادس عشر

ملك الملوك إذا وهب لا تسألنَّ عن السبب

رضا رجل عصامي فقير، يعمل عامل نظافة في البلدية بمرتَّب بسيط قنع به وشكر ربه عليه؛ إذ كان يقوم بنفقاته ونفقات زوجته الوفية الراضية بحياتها، ونفقات ابنه «سعيد».

لم يستطع رضا تعليم ابنه سعيد؛ إذ كان مُرتَّبه البسيط، لا يكاد يفي باحتياجات الأسرة الضرورية، ولما بلغ سعيد الرابعة عشرة من عمره، اضطر إلى أنْ يعمل صبيًّا عند بائع ثلج، كي يساعد أباه.

بقي سعيد في هذا العمل عدة سنوات، لا يجد عملًا سواه أفضل منه، ولم يرغب بائع الثلج في أنْ يمنحه ولو علاوة بسيطة، وقد كبر لديه في هذا العمل الحقير، حتى بلغت سِنُّه العشرين. وكان سعيد هذا شابًّا قوي البنية، مفتول العضلات كأنه مُصارِع، فارع الطول، ممتلئ الجسم، وزيادة على ما حباه الله به من صحة وقوة، كان جميل المُحَيَّا جمالًا تحسده عليه الإناث قبل الذكور؛ إذ كانت أمه جميلة وأبوه جميلًا رغم فقره.

ذات يوم، بينما كان سعيد يتبوَّل إلى جانب حائط أحد الفنادق الكبرى، تصادف أنْ أبصرَتْه سائحة وهي تطل من نافذة حجرتها بالفندق، فأُعجِبت بجماله وبهاء طلعته، ووجدت نفسها تميل إلى هذا الشاب الوسيم بكل جوارحها ومشاعرها وقلبها، ولكن ماذا بوسعها أنْ تفعل، وهي في الطابق الثاني عشر، وهو على الأرض في الشارع. فلا يمكنها أنْ تناديه أو تتحدث

إليه. فظلت تراقبه وتمتع عينيها بالنظر إلى جماله، حتى انتهى سعيد من التبول، وسار في حال سبيله، وأما هي فما زالت تُشيِّعه بنظرها حتى توارى عن بصرها واختفى وهو يدخل شارعًا جانبيًّا.

ابتعدَت تلك السائحة عن النافذة، وجلست في حجرتها تفكر في ذلك الشاب وجماله، وماذا عساها تفعل لكي تصل إليه، إنها لا تعرف اسمه، ولا مهنته حتى تكلف أحد عمال الفندق باستدعائه إليها، ومع ذلك، فلم تغب صورته عن مخيلتها، بقية يومها وطول ليلها ... لم تذق عيناها النوم، في تلك الليلة. لا بد لها أنْ تحظى بالحديث مع ذلك الشاب المليح وتُمتع عينيها بالنظر إلى ملامحه الفذة الجمال ... هل تسير في الشوارع المحيطة بالفندق حتى تعثر عليه؟ هذا هراء، فمن يدري، ربما كان من منطقة أخرى غير منطقة الفندق.

أصبح الصباح، وهذه السائحة الأجنبية تتقلب في فراشها وهي على أحرَّ من الجمر، والنار تتأجج في جسمها وقلبها بحب ذلك الشاب الذي أبصرته يتبوَّل بجوار الفندق.

سبحان من يحكم التدبير؛ كان لبائع الثلج حساب لدى الفندق الذي تقيم به تلك السائحة الولهانة، فأرسل صَبِيَّه سعيدًا، لإحضار المبلغ من مدير الفندق، وهكذا ذهب سعيد في ذلك الصباح إلى الفندق، فإذا بالسائحة تبصره وهي في القاعة الكبرى، فنهضتْ بسرعة واتَّجهت نحوه، وأشارت إليه بأن يصحبها، فصحبها وهو لا يدري لماذا تريده، ولا إلى أين سيذهب معها.

كان سعيد، بحكم علاقته بالسائحين واحتكاكه بهم، قد تعلَّم بعض الكلمات والعبارات الأجنبية، ولا سيما باللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية، شأنه

في هذا شأن جميع البائِعِين المتجوِّلِين وماسِحي الأحذية وغيرهم من يرتزقون من السائِحِين.

ركب سعيد المصعد مع تلك السائحة، حتى الدور الثاني عشر، ودخل معها حجرتها بحسب طلبها. وما إنْ دخلَا الحجرة حتى أقفلَت السائحة باب الحجرة من الداخل بالمزلاج، وانهالت على سعيد تُقبِّله بحرارة وتضمه إلى صدرها بعنف وشدة.

لم يسبق لسعيد أن التصَق جسمه بجسم أية امرأة. وها هو الآن يجد شَفَتَي سيدة جميلة بحق، تلتصقان بشفتيه، وصدرها يلتصق بصدره، فما كان منه إلا أنْ جاراها وهو لا يدري ما يفعله ... فأجلسته إلى جانبها على السرير وهي تُوسعه تقبيلًا وعناقًا، وهو يفعل المثل ... وحدث ما لا بد منه ... وعندما انتهى سعيد من مهمته، لم تدعه يغادر الحجرة ... بل طلبت طعام الإفطار ومعه زجاجة من الويسكي، وهكذا تناوَل سعيد إفطارًا لم يَذُق مثله طول حياته وشرب الويسكي لأول مرة، وسَكِر وثَمِل ... وعاود الكَرَّة مع تلك السائحة، مرات ومرات، إلى وقت متأخر من الليل.

أرادت تلك السائحة الشهوانية، أنْ يبيت معها سعيد لينهلا معًا من كئوس الحب. ولكنه اعتذر لها بعدم استطاعته التغيب عن بيته ليلًا، وإلا هام أبوه وأمه على وجهيهما يبحثان عنه في جميع الطرقات، فرضيت على مضض أنْ تتركه ينصرف على أنْ يأتي إليها في صباح اليوم التالي ... وقدَّمت إليه كيسًا جميلًا من الجلد به عشرون جنيهًا ذهبًا ... وانصرف سعيد على هذا الشرط.

قلق رضا وزوجته لتأخُّر ابنهما سعيد عن المجيء إلى البيت حتى هذه الساعة. وساورتهما الشكوك والمخاوف، وهما ساهران، إلى أنْ جاء سعيد.

فسألاه عن سبب تأخره، فلم يجب بشيء وإنما قدَّم لأبيه الكيس وبه العشرون قطعة ذهبية. فدهش أبواه، وسألاه عن مصدرها، فطلب أنْ ينتَحِي بأمه جانبًا ليخبرها بذلك.

اختلى سعيد بأمه، فأسرَّ إليها، في صراحة تامة، بكل ما حدث بينه وبين تلك السائحة الفائقة الجمال، ذات الجسم البض الناصع البياض ... ولمَّا أخبر والدته بأن العشرين جنيهًا ذهبًا تساوي أكثر من أربعة آلاف جنيه مصري، شَجَّعَته على أنْ يتمادى معها لكي ينال ذهبًا أكثر. ولما أفضت الأم إلى زوجها بحقيقة مصدر تلك النقود، وماذا كان من لهفة السائحة إلى ابنهما سعيد ... عرف رضا السبب الحقيقي، فمن شابه أباه فما ظلم، ولكن الأم لم تعرف ذلك السر الخفي.

عاد سعيد إلى السائحة مبكرًا في صباح اليوم التالي، وتكرَّر الدور ولكن على نطاق أوسع حتى جاء المساء، فأخذ العشرين جنيهًا ذهبًا وأعطاها لأبيه، على أنْ يذهب إلى السائحة في صباح كل يوم ... وهكذا ظل سعيد يتمتع مع تلك السائحة الجميلة عدة أيام ينال في كل يوم منها نفس المبلغ.

تأكدت هذه السائحة أنها تجد متعة مع سعيد، لم تعهدها قَط مع زوجها الذي مات في العام الماضي، ولا مع أي رجل من مواطنيها الذين عاشرَتْهم بعد موت زوجها. كما تأكدت بأنها لن تستطيع فراقه أو العودة إلى بلدها بدونه ... ففاتحته في أنْ يتزوجها، فتصحبه معها إلى بلدها.

ولما كان سعيد نفسه يجد متعة ولذَّة بالِغَتَين في معاشرة هذه السائحة، رغم كونها أكبر منه سنًّا ... وافق مبدئيًّا، على أنْ يستشير والديه، فإن وافقا، كان بها ونِعمَت، وإلا فلن يتزوَّجَا ... فرأت السائحة صواب قوله، إلا أنها خشيت عدم موافقة الوالِدَين فأخبرَت سعيدًا بأن يذهب من فوره ويحضر

والديه إلى الفندق دون أنْ يخبرهما بالغرض من مجيئهما. على أنْ تخبرهما السائحة بما تريده، بطريقتها الخاصة. وكما يقول المثل الإنجليزي: «المفتاح الذهبي يفتح كل باب.»

جاء أبو سعيد وأمه إلى الفندق، فبهرتهما فخامته؛ إذ لم يَدخُلا أي فندق كبير من قبل. ولما جاءت السائحة وسلَّمت عليهما بأدب واحترام فائقَين، دُهِشا لجمالها الفتان وأدركا أنَّ ابنهما سيكون سعيدًا بحق مع هذه الغادة الحسناء.

طلبت السائحة للوالدين الشاي والجاتوه، وبعد أنْ شَربا وأكَلا، أخرجت مائة جنيه ذهبًا ووضعتها أمامهما على المائدة. وطلبت من سعيد أنْ يُترجِم لهما أنَّ هذا المبلغ لهما إنْ وافقا على الزواج.

تشاوَر رضا وزوجته معًا، أمام السائحة وأمام سعيد، أعلمها أنَّ السائحة لن تعرف أية كلمة واحدة مما يتحدثان به، فقرَّرَا أنَّ الزواج بهذه المليحة الثرية فُرصة لا تُعوَّض، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ستكون معاشرة سعيد لها حلالًا وشرعية عسى الله أنْ يغفر له ما تقدَّم من ذنبه، بأن عاشرها بضعة أيام في الحرام، وطلبَا من سعيد أنْ يُترجِم لها، أنهما يوافقان على الزواج بشرط واحد، وهو أنْ يأتي سعيد لزيارتهما مرة في كل عام.

وافقَت السائحة على هذا الشرط، وأخذ رضا الذهب، فقالت السائحة: خير البر عاجله، فلنطلُب المأذون الآن ليعقد عقد الزواج، فوافق رضا، كما وافقَت زوجته، وتزوَّج سعيد السائحة بسُنَّة الله ورسوله، وبقي معها.

في صباح اليوم التالي للزواج، ذهبت السائحة إلى سفارة بلدها بالقاهرة، وطلبتْ منهم استخراج جواز سفر لسعيد ... فعارَض أولو الأمر بالسفارة بحُجة أنها لا بد أنْ تتزوج من مواطنيها، ولكثير منهم ميزات تُشبِه ما يمتاز

به سعيد وجعلها تُؤْثِره على أبناء جِلدتِها. فقالت لهم: ما من رجل من مواطنِيَّ كسعيد، إنَّ به ميزة لو أبصرَتْها نساؤكم، لتمنَّت كل واحدة منهن أنْ يكون لها منه ولد.

اضطر المسئولون بالسفارة إلى إجابة السائحة إلى مَطلبِها؛ إذ هددتهم بأنها، في حالة عدم السماح لسعيد بالسفر معها إلى بلدها، ستبيع كل ممتلكاتها هناك وتعيش بمصر مع سعيد بعد أنْ تعطيه كل ما تملك.

ذهب رضا وزوجته إلى المطار لتوديع ابنهما وعروسه، وفي المطار أعطت السائحة والد سعيد معظم ما كان معها من نقود ذهبية، كما أعطت الأم، كل ما كانت تتحلَّى به من مجوهرات؛ إذ كانت هذه السائحة واسعة الغنى ... وهكذا رحل سعيد وعروسه سعيدَين.

من نافلة القول، أنْ نذكر أنَّ رضا، والد سعيد، ترك عمله بالبلدية. فلم يعد بحاجة إلى القروش التي يتقاضاها كل شهر ... وسبحان المعطي؛ إذ غدَا من أصحاب ألوف الجنيهات.

انتقلت أسرة رضا المكوَّنة منه ومن زوجته ومن ثلاث بنات كُبْرَاهن في السادسة من عمرها، إلى شقة اشترياها في عمارة ضخمة بحي راقٍ. وخصَّصا فيها حجرة لسعيد عندما يحضر لزيارتهما مع زوجته في كل عام ... وأثَّثا تلك الشقة بأثاث فخم يتناسب ومركزهما الحالي. وافتتح رضا متجرًا لمستخرجَات الألبان، بنفس الحي الذي يسكن فيه. بعد عام، جاء سعيد وزوجته الفاتنة لزيارة أبيه وأمه وأخواته، وأحضرَا معهما الكثير من الهدايا، مما خفَّ حَمْله وغلا ثمنه. وبقيا بالقاهرة أسبوعين.

هكذا كان سعيد وزوجته يحضران في كل سنة، وفي عاشر مرة، تُوفِّيت زوجة سعيد بالقاهرة أثناء الزيارة، فدفنها.

كانتْ زوجة سعيد الأجنبية قد ذكرت في وصيتها أنَّ سعيدًا هو وارثها الوحيد، فسافر سعيد إلى بلدها وباع جميع ممتلكاتها هناك وجاء بثمنها إلى مصر، فاشترى مزرعة كبيرة لتربية الماشية ومصنعًا ضخمًا لمستخرَجات الألبان.

بعد مرور عام على وفاة زوجة سعيد الأجنبية تزوَّج سعيد ابنة عمه بعد أنْ تخرَّجت في كلية الزراعة، قسم إنتاج حيواني؛ وجعلَها تدير مصنع الألبان بينما يتفرَّغ هو للمزرعة.

استطاع رضا تعليم بناته حتى تخرَّجْن في الكليات النظرية والعملية، وتزَوَّجن أزواجًا ذوي مراكز سامية. وهكذا:

ملك الملوك إذا وهب   لا تسألَنَّ عن السبب
الله يفعل ما يشا   ء فقِفْ على حد الأدب

الفصل السابع عشر

الانسحاب التام

انحدَرَت سميرة من أُسرة مُتحابَّة يحب كل واحد فيها الآخر، ويساعده بكل ما لديه من حَوْل وطَوْل ويضحي ببعض مصالحه الخاصة من أجل إسعاد أخيه. فهذه سميرة الطالبة بالمرحلة الثانوية، اجتهدَت بمجهودها الذاتي حتى حصلت على شهادة التوجيهية. ولكنها لم ترغب في مواصلة الدراسة بالجامعة، كي تفسح المجال لأختها زينب لتتم دراستها بكلية الحقوق، ورضِيَت بالبقاء في البيت تخدم الأسرة وتوفر لهم أسباب الراحة، وكانت هذه الأسرة المتحابة تعيش على مُرتَّب الأخ الأكبر من عمله كمحاسب بأحد بنوك القاهرة، وما يكسبه من عمل ليلي آخر، يُمسِك حسابات مَتجَر كبير قريب من البنك الذي يعمل فيه.

قدَّمَت سميرة هذا التنازل كخدمة تبرَّعَت بها لتتمكن أختها من مواصلة الدراسة بالجامعة إلى أنْ تحصل على الليسانس الذي يؤهلها للعمل في وظيفة مُحترَمة تكسب منها ما يساعد الأسرة على الحياة، خصوصًا وأن أخاها الأكبر قد ارتبط بفتاة من أسرة عريقة، وخطبها تمهيدًا لأنْ يتزوجها، وعندئذ سيترك الأسرة ليعيش مع زوجته، فتنقطع مساعدتُه أُمَّه وأخواته، فيُحكَم عليهن بالموت جوعًا؛ إذ ليس لهن عائل سواه.

نجحَت زينب بتفوُّق في كلية الحقوق، وحصلت على الليسانس، وأخذت تسعى هنا وهناك وحفِيَت قدماها في البحث عن عمل تَرتزِق منه ويَكفُل

الحياة لأسرتها. وأخيرًا كلّل الله المُتحنِّن الرحيم مَسعاها بالنجاح، فالتحقَت بوظيفة في قسم الشئون القانونية بالبنك الذي يعمل فيه أخوها.

لمَّا وجدَت سميرة أنَّ زينب تعمل وتكسب، فكَّرَت في العودة إلى الدراسة مرة أخرى. غير أنه كان لا بد لها من أنْ تحصل على شهادة التوجيهية مرة أخرى، كما تقضي بذلك قوانين الجامعات حتى يمكنها الالتحاق بأية كلية توصلها إلى أنْ تصبح مثل أختها زينب، خريجة جامعية، وبذا يمكنها الإسهام في أعباء نفقات الأسرة المُتحابَّة المكافحة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

شجَّع الأخ الأكبر سميرة، كما شجَّعتها أختها على المُضِي قدمًا فيما اعتزمَت عليه من العودة إلى التعلم لتلتحق بالجامعة؛ إيمانًا منهما بأن سميرة تستحق كل خير لما قدَّمَته من تضحية بعد حصولها على الشهادة التوجيهية، مؤْثِرة أنْ تتمكن أختها زينب من إكمال دراستها الجامعية.

كانت أختهم سميحة تعمل بإحدى الشركات بمرتَّب لا بأس به، وبذا تمُد يد العون للأسرة. وذات يوم تقدَّم لخطبتها وطلب يدها، زميل لها بالشركة التي تعمل بها، توطئة لأنْ يتزوجها؛ ففرح أفراد هذه الأسرة وسعدوا، ولم يبق من شيء لاكتمال سعادتهم، إلا أنْ تلتحق سميرة بكلية ما، كي تغدو خريجة جامعية.

مضى على بقاء سميرة في البيت سَنتان بعد حصولها على الشهادة الثانوية العامة فنَسِيت كثيرًا مما تعلمته، وكلنا نعلم أنَّ «آفة العلم النسيان.» وبذا احتاجت إلى أنْ تلجأ إلى المُدرِّسين الخصوصيين يشرحون لها ما نسيته إلى أنْ تستوعبه.

أحضرت سميرة مدرِّسِين خُصوصيِّين، في كل المواد تقريبًا، ما عدا اللغة الإنجليزية التي يتعذر عليها العثور على مدرس كفء في تلك اللغة التي قد نَسِيت كل شيء عنها، وما عادت تستطيع تركيب جملة صحيحة من ناحية القواعد الإنجليزية، أما بقية المواد، فكلها باللغة العربية التي تفهمها وتجيدها، وبذلك يمكنها التغلب على تلك المواد وفَهْمِها وحفظها في سهولة ويسر.

تبرَّعت إيمان، جارة سميرة في الحي الذي تقيم فيه، بأن تساعد صديقتها سميرة في تحقيق هدفها الذي تصبو إليه، لا سيما وأن إيمان نفسها سبق لها الرسوب في التوجيهية ثلاث مرات، حتى فقدت الأمل في الحصول عليها. فلما وجدت في سميرة الإصرار والعزيمة على الرجوع إلى الدراسة، انتهزت هذه الفرصة، وتركَت أمها العجوز، لتقيم بصفة دائمة مع سميرة، وتستذكر معها الدروس. وبذا تساعد كل منهما الأخرى في فَهْم ما نسيته، كما تشترك معها في دفع أتعاب المدرِّسِين الخصوصيين.

رحَّبَت والدة سميرة بوجود إيمان مع ابنتها، كي تُحمِّسها وتُخفِّف عنها أعباء نفقات الدروس الخصوصية ... وإمعانًا في التغلب على جميع العقبات التي تقف في طريقهما، التحقتا بمدرسة مسائية لحضور المواد التي لا تَتلقَّيان فيها دروسًا خصوصية.

أحضرَت إيمان لسميرة مدرسًا قديرًا للغة الإنجليزية يمتاز بالمهارة الفائقة في هذه اللغة، وبالأمانة في تلقينها؛ عرفته إذ كان يدرِّس صديقتها هناء، فنجحَت هذه على يديه من أول امتحان وحصلَت على الدرجة النهائية تقريبًا، في الإنجليزية، وبذا ارتفع مجموع درجاتها ودخلَت كلية مرموقة.

تحوَّل بيت سميرة إلى مدرسة خاصة ... هذا المدرِّس داخِل، وذاك خارِج، وصينية القهوة في حركة دائبة، ذهابًا وإيابًا إلى حجرة الدرس؛ إذ يطلب بعض المدرسين القهوة بنفسه مرتين في الحصة الواحدة، ومنهم من يطلب الشاي ... وهكذا راحت الفتاتان تبذلان أقصى جهودهما في الاستذكار والاستيعاب وتَسهران كل يوم إلى ما بعد منتصف الليل تستذكران وتشجع كل منهما الأخرى.

لاحظت إيمان، أنَّ سميرة مُعجَبة بمدرس اللغة الإنجليزية الذي استطاع أنْ يعيد الثقة إلى نفسها وقلبها، كما أنها اهتمَّت بهذه المادة كل الاهتمام لخوفها الشديد من عواقب الإهمال، أو التهاون، أو الاسترخاء في دراسة هذه اللغة الأجنبية التي تعلم يقينًا أنها ضعيفة فيها، ولا بد لها من بذل أقصى جهدها في استعادة ما نَسيَته من مقرَّرات وقواعد ومصطلحات هذه اللغة.

دبَّت الغيرة في نفس إيمان، ولامَت نفسها على إحضار هذا المدرِّس الماهر، وغاظَها إعجاب سميرة به، فربما نشأَت بينهما علاقة حب تتطور إلى خطوبة وزواج ... فعوَّلت إيمان على أنْ تفعل شيئًا تهدم به ما بنته بنفسها، وتُحبِط آمال صديقتها سميرة التي غدَت منافستها الآن في كل ناحية. فانتهزت فرصة اندماجها الشديد في حياة سميرة، وثِقة هذه الأخيرة بها؛ إذ كانت تأكل معها، وتنامان سويًّا على سرير واحد ... فأفهمَتْها ذات ليلة عندما ذهبتَا إلى الفِراش، أنها كانت على علاقة عاطفية بأستاذ اللغة الإنجليزية هذا، وأن هذه العلاقة ما زالت قائمة بينهما، رغم أنه حاول مرة أنْ يعتدي عليها، ولكنها صدَّتْه بقوة وقاومَتْه بكل عنف، فصدَّقَتها سميرة.

لم تكتفِ إيمان بهذه القصة المُختلَقة، وهذا التشهير والتشنيع المَقِيتَين بسمعة ذلك الأستاذ البريء، فاتصلَت تليفونيًّا به، وقالت له إنها لا تستطيع

مواصلة الدرس؛ لأن أخلاق سميرة لا تعجبها؛ إذ اكتشفت أنها على علاقة آثمة بمحامٍ صديق أخيها، يأتي لزيارتها في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولا يصحُّ أنْ يحدث هذا مع فتاة لا تزال طالبة بالمرحلة الثانوية.

تكَهْرَب الجو، وتخلَّف الأستاذ عن حضور حصة اللغة الإنجليزية، وطال انتظار الصَّديقَتَين إيَّاه، دون جدوى ... فاتَّصلَت به سميرة هاتفيًّا، تسأله عن سبب انقطاعه. فأخبرها بكل ما قالته له إيمان، ولم يترك منه شيئًا، وبعزم إيمان على التوقف عن مواصلة الدرس، لما لمَستْه من اعوجاج في سلوك سميرة، وخافَت على سُمْعَتها هي نفسها أنْ تلوكها الألسن.

جُنَّ جنون سميرة واغتاظت لما بدَر من إيمان التي تتظاهر بصداقتها، ونفَتْ عن نفسها كل ما سمعته من ذلك الأستاذ، ثم أخبرته بما قالته إيمان عنه وعن محاولته الدَّنِيئة، وعن علاقتها العاطفية به منذ زمن بعيد؛ لذا أحضرته لإعطاء الدرس كي تلتَقِي به وتُسِر إليه بما تريده، عندما تذهب سميرة لإحضار كتاب أو غيره ... فكذَّب الأستاذ كل هذه الادعاءات الباطلة، ونفى عن نفسه أية علاقة بهذه الدسَّاسة المجرِمة، وبذا عوَّلت على الانتقام، بشدة من إيمان، وإن كيدهن عظيم.

ما هي إلا أيام قلائل، حتى استدعى البوليس إيمان إلى القسم، للتحقيق معها. فلما مثلت أمام الضابط المُحقِّق، أخبرها بأن سميرة تتهمها بسرقة زوج من الأساور الذهبية المُرصَّعة بالجواهر، وقِرطين ثَمينَين من الذهب، تبلغ قيمة ما سرَقَته ألفي جنيه، وذلك أثناء إقامتها معها في منزلها.

وُضِعَت إيمان في السجن بقسم البوليس، وسط السارقات والمجرمات، فضلًا عما لَقِيَته من الضرب المبرح لكي تعترف ... وهكذا حُجِزَت بالسجن مدة ليلتين ذاقَت فيهما العذاب، إلى أنْ توسَّل أهل إيمان إلى سَميرة بأن تتقذ

صديقتها القديمة، فذهبت معهم إلى قسم البوليس، وأبدت رغبتها في التنازل عن بلاغها، بناءً على رجاء أهل إيمان، وإكرامًا لخاطر صداقتها السابقة، فحُفِظ التحقيق، وخرجت إيمان من السجن. وعادت تستذكر دروسها مع سميرة من جديد، بعد أن اعترفت لها بذنبها، وكذَّبت ما قالته عن المدرس وعنها، ونَسبت كل هذا إلى الإرهاق الشديد الذي أصاب جسمها وعقلها من جراء الاستذكار وكثرة السهر.

بعد أسابيع، حدَث ما لم يكن في الحسبان: غَضِبت سميرة من إيمان مرة أخرى، ولكن غضبتها في هذه المرة، كانت غضبة مضرية، تهتك حجاب السماء إلى أنْ تقطر دمًا ... فبينما كانت سميرة نائمة مع إيمان في سرير واحد، استيقظَت على أصوات عاطفية ففتحت عينيها، فإذا بها ترى أخاها يَحتضِن إيمان فقفَزَت من الفِراش مذعورة، وأحضرَت عصا من الخيزران، بسرعة. وانهالت بها على الفاسِقَين كليهما بكل ما أُوتِيَت من قوة.

ما كان من الأخ إلا أنْ نهض بسرعة وهرَب إلى حجرته، كأن شيئًا لم يحدث ... أما إيمان فنالت أكثر الضرب وظلَّت آثار العصا على فَخِذيها وساقيها مدة طويلة بعد ذلك، ولكنها لم تستطع الشكوى لأي إنسان أو البوح بما حدَث لأقرب المُقرَّبين إليها، وإلا اتَّهمَت نفسها وانطبق عليها المثل: «جحا اشتكى روحه.»

هكذا انفصلَت الصديقتان، وقرر مدرس اللغة الإنجليزية أنْ يُلغِي هذا الدرس اللَّعين، رغم أنَّ سميرة حاولتْ أنْ يكون الدرس لها وحْدَها، كما عرضت عليه إيمان نفس الشيء ... ولكن هذا المدرِّس وجد أنَّ الرائحة فاحَت، وتعقَّدَت الأمور بما يُوجِب الشك فيه وفي علاقته بهاتين الفتاتين التي فسقَت إحداهما علنًا ... فأراد أنْ ينفذ بجلده لخطورة الموقف وصلته به، وما

قد يترتب عليه من اتهامات، لا سيما وهو رجل أعزب، وآثر الانسحاب التام. وهكذا فعل.

الفصل الثامن عشر

كرامة المرأة الفاضِلة فوق كل اعتبار

نِهاد طالبة جامعية بإحدى الكليات النظرية، تمتاز عن مُعظَم طالبات الجامعات في كونها لا تفكر في الحب ولا تميل إلى مُصادَقة زملائها الطلبة الذكور. كانت مثال الاستقامة، من البيت إلى الكلية، ومن الكلية إلى البيت حيث تُساعِد أمها في أعمال المنزل ثم تستذكر دروسها. إذا جلسَتْ في الكافيتريا إبَّان الفترات بين المحاضَرات، لا تراها إلا وحْدَها تقرأ كتابًا أو تدوِّن بعض المذكِّرات عن المحاضَرة السابقة.

وعصام طالب بكلية الطب، في السنة النهائية. لاحَظ نِهاد وهي تخرج من كليتها متوجِّهة إلى بيتها، لا تنظر يَمنةً ولا يَسرة؛ فأحبها من أعماق قلبه دون أنْ يعرف عنها شيئًا. وكان له صديق زميل لنهاد بكليتها، فكلَّفه بمراقبتها وإعطائه تقريرًا مفصَّلًا عنها، فجاء التقرير على نحو ما ذكرنا عن سلوك نهاد.

وذات يوم أراد عصام، بعد أنْ تخرَّج طبيبًا وأمضى فترتي الامتياز والتكليف، أراد أنْ يتعرَّف بنهاد فلم يستطع أنْ يحظى منها بكلمة واحدة، ولما ضاقت به الحيلة، تعقَّبها من مسافة، وهي لا تدري، حتى أبصرها تدخل دارها، فذهب إلى بواب العمارة وسأله عنها، فأخبره بأنها ابنة موظَّف كبير في الدولة، وذكر له رقم شقتها واسم والدها، وبذا عرَف رقم تليفونها.

اتصل الدكتور عصام بوالد نهاد تليفونيًّا، وعرَّفه بنفسه وبرغبته في زيارته بمنزله لأمر هام، فوجد التَّرحيب من والد نهاد، وحدَّد موعدًا للزيارة.

التقى عصام بوالد هذه الفتاة المستقيمة، وعرَّفه تفصيليًّا بمركزه وبمركز أُسرَته وبأنه إنما جاء ليطلب يد ابنته التي لا يعرف اسمها.

طلب والد نهاد من عصام أنْ يمهله أسبوعًا ليتشاور في هذا الأمر البالغ الأهمية، مع زوجته ومع ابنته، وأن يعود لزيارته في مثل هذا اليوم من الأسبوع التالي في نفس الميعاد.

كُلَّما سأل والد نهاد أي واحد ممن لهم احتكاك ومعرفة بالدكتور عصام، جاء الثناء عاطرًا على خُلق عصام، وعلى عَراقة أُسرته ومَحْتِده. فهو من أُسرة مُوسِرة شريفة متديِّنة، يلهج الجميع بمدحها. فلما عاد الدكتور عصام إلى والد نهاد، لقي الترحيب والموافَقة ... وبعد الإجراءات التي لا بد منها، تزوَّج الدكتور عصام، نهاد في حفل عائلي بسيط ... وكانت نهاد قد تخرَّجت في كليتها وأرادت أنْ تعمل، فرفض الدكتور عصام السماح لها بالعمل، لكي تهتم بشئون بيتها وبتربية أولادها إنْ رزقهما الله أولادًا.

عاشت نهاد سعيدة مع زوجها الطبيب، غير أنَّ حياتهما كانت مضطربة من الناحية المالية في السَّنتَين الأولَيَيْن؛ إذ كانت عيادته لا تُدِر عليه دخلًا، رغم أنه خفَّض الكشف على المرضى بما يتَّفِق ومستوى الحي الشعبي الذي به العيادة ... وفضلًا عن هذا، كان عليه أنْ يدفع شهريًّا أَجْر الممرِّض والخادم، والنور وإيجار العيادة ... ولذا أراد أنْ يعمل في إحدى الدول الشقيقة عساه يحظى بدخْل يقوم بجميع نفقاته ويدخر منه جزءًا للمستقبل.

وأخيرًا، اطمأنَّت نهاد؛ لأن زوجها عَثر على ضالَّته المنشودة؛ إذ وجد عملًا في إحدى الدول العربية، ولكن ما لبثت فرحتها أنْ تلاشَت لقيام بعض

العراقيل، فاضطر الدكتور عصام إلى أنْ يبيع عيادته بمحتوياتها، ويعمل مع والده في المَطبعة التي يمتلكها ذلك الوالد، لكي يستطيع أنْ يَعول زوجته ومولودها عبد العزيز، رغم الشهادة الجامعية المحترَمة التي كان قد بذل الجهد والعرق، وسهر الليالي، حتى حصل عليها بامتياز، ثم أضاف إليها شهادة الماجستير في طب «الأنف والأذن والحنجرة».

حَزَّ في نفس والِد عصام، الألم الشديد؛ إذ رأى ابنه الطبيب يعمل في تجليد الكتب، ومراجعة «البروفات»، تاركًا علمه ودراسته وما أَعدَّ نفسه له من مستقبَل باهر ... ولام نفسه على أنه أسرع بتزويج ولده بمجرَّد أن انتهى من دراسته الجامعية قبل أنْ يُكوِّن نفسه ويستقر ماليًّا. ولكنه عاد فقال في نفسه: إنَّ الخيرة فيما اختاره الله؛ إذ لو بقي بغير زواج، فربما عرف طريق الفساد والغواية، وبذا يشذ عن خُلق أسرته المتمسكة بالفروض الدينية؛ لذا قرَّر لولده الطبيب مرتَّبًا كافيًا لنفقاته ونفقات أُسرته نظير مساعدته في أعمال المطبعة.

حَبَا الله سبحانه وتعالى، الدكتور عصام بزوجة صالحة تقية طيبة، ذات خلق سامٍ. فلم تَشكُ يومًا واحدًا شَظَف العيش، ولا مما هي فيه من عَنَت الحياة، بل كانت تبذل قصارى جهدها في أنْ تستقبل زوجها وهو عائد من الخارج، هاشَّة باشَّة، على ثَغْرها ابتسامة حلوة تنسيه كل ما هو فيه من هموم. كما كانت ابتسامة عبد العزيز تفعل دورها في نفس أبيه، فينسى مَتاعب حياته، ومع ذلك، كان يشكر ربه باستمرار على هذه الحياة.

جاء اليوم الذي لاح فيه أنَّ القدر بدأ يبتسم للدكتور عصام؛ إذ شاءت المقادير أنْ يتعرف برجل سعودي ثَرِي، صاحب مستوصف خاص بالمملكة العربية السعودية، يضم جميع أقسام الطب للأمراض الباطنية، وأمراض

القلب، والعيون، والأسنان والجراحة، وأمراض العظام، والأذن والأنف والحنجرة، وأمراض النساء والتوليد، والأمراض الجلدية والتناسلية، وغير ذلك من شتَّى فروع الطب، وكذلك مختلف أنواع التحاليل والكشف بالأشعة وكل ما يمكن أنْ يضمه الطب ... فتعاقَد معه الدكتور عصام بمرتَّب كبير جدًّا، على أنْ يسافر إلى الرياض في بحر أسبوع، تاركًا زوجته نِهاد، وابنه عبد العزيز، إلى أنْ يُدبِّر أموره في السعودية فيستدعيهما.

ملأتِ الفرحة قلب نهاد، وشكرَتْ خالِقَها المُنعِم. وهكذا رحل الدكتور عصام وهو يُودِّع زوجته الصَّالِحة، وابنه الصغير، بالقُبُلات والأحضان وهي تدعو له بالتوفيق، وطلبَت منه ألا يقطع عنها رسائله ويُعلِمها بأخباره أولًا بأول، بالمحادَثات التليفونية اليومية، إنْ أمكن ذلك.

سافر الدكتور عصام على بركة الله، واطمأنَّت زوجته إلى ما انتهى إليه من عمل، ومن مُرتَّب كبير ما كان ليحلم به إلا بمعجزة، وقد حدثَت المعجزة أخيرًا، بفضل الله الرزَّاق.

مضى عام كامل على الدكتور عصام في عمله الجديد بالمملكة العربية السعودية ... كان في شهوره الأُولى، يرسل الخطابات بانتظام إلى زوجته، ويتصل بها تليفونيًّا كلما سَنحَت له الظروف ... إلا أنه في الشهور الأخيرة، كاد يقطع عنها خطاباته وأخباره؛ فحارَت نهاد، وساورتها شتى الظنون والمخاوف، وبدأت الشكوك تتلاعبُ في عقلها الباطن: تُرَى هل عصام مريض؟ ... هل هو مشغول؟ ... هل هو في طريق العودة إليها وإلى ولده عبد العزيز، كي يفاجئها بعودته وقد امتلأ جيبه بالدولارات، ويحمل إليها وإلى ابنه أنفس الهدايا؟ ... هل ... هل.

زاد الأمر على حد المعقول. وكل ما زاد على حَدِّه انقلب إلى ضده، فلعب الفأر في عب نهاد فأصرَّت على أنْ تسافر مع ولدها إلى زوجها، ولا شك في أنَّ شوق الدكتور عصام إلى لقائهما سيكون قويًّا ... فأرسلَتْ إليه برقِيَّة أنْ ينتظرها في مطار الرياض في موعد حدَّدتْه.

سافرتِ الزوجة إلى السعودية، وقلبُها يكاد يطير من شدة الفرح؛ إذ ستلتقي أخيرًا بزوجها الحبيب بعد أن انقطعت عنها أخباره مدة طويلة.

توقَّعَت نهاد أنْ يستقبلها الدكتور عصام بالعناق والقُبلات وبأحسن ما يكون عليه الترحيب. ولكن ... حدث العكس ... قابَلَها بفتور كأنها امرأة غريبة لا يعرفها ولم يعاشرها، وبدلًا من أنْ يصحبها هي وولده إلى بيته الذي يقيم فيه، أصرَّ على أنْ تنزل بأحد فنادق المدينة، بعيدًا عن مسكنِه الرسمي ... ولم تَفهَم نهاد السر الكامن وراء هذا التصرف الغريب الشاذ ... ولكنها تريَّثَت وتذرَّعَت بالصبر؛ أملًا في أنْ تعرف كل شيء فيما بعد.

ما هي إلا عَشِيَّة وضحاها، حتى جاءها من يخبرها بأن الدكتور عصامًا تزوَّج ممرضة أمريكية، بالمستوصف الذي يعمل به، وكانت فتاةً لعوبًا عرفَت كيف تلعب بعواطفه وتجذبه إليها ... فأحبَّها بدوره؛ إذ كانت على قدر كبير من الجمال والفتنة، ولأنه كان يأمل في أنْ تَجِدَ له عملًا بأمريكا، أفضل من عمله بالسعودية، فيعيشَا هناك سعيدَيْن.

نزل هذا الخبر على نهاد نزول الصاعقة، فأصرَّت على الطلاق الفوري، وتشبَّثَت بمطلبها رغم محاولة الدكتور عصام أنْ يثنيها عنه بكافة الطُّرق والوسائل؛ رفقًا بابنه عبد العزيز، إلا أنَّ هذه الأم المصرية الفاضلة أَبَت أنْ تُطعَن في كرامتها التي تُفضِّلها على أي شيء آخر، وأصرَّت على الطلاق.

عادت نهاد إلى مصر، مُطلّقة، ومعها صغيرها عبد العزيز، عادت إلى بيت أبيها، وطوت نفسها على أحزانها، وعوَّلت على أنْ تتفرغ لتربية ولدها الوحيد، وعلى ألا تتزوج طول حياتها بعد تجربتها الأولى ... وأي تجربة!

الفصل التاسع عشر

وردة بلا أشواك

سامية فتاة آية في الجمال، وهَبَها الخلَّاق العظيم قوامًا ممشوقًا جذابًا، ووجهًا في استدارة القمر. كان كل ما فيها مليحًا؛ ولذلك راح الرجال يَتكالَبون عليها، كلٌّ يريدها زوجةً له؛ لما تمتاز به من حُسْن ساحر، وينطبق عليها ما قاله الشاعر الولهان:

ظبي ياقوت مراشفه الوهَّا ج تكلل بالجوهر
وسما لِسَما عرش الوجنا تِ إله جمال لا يُنْكَر
تحكي عن مُحْكَم قدرَتِه رُسُل الألحاظ لمن أنكر
وأقام دليل نُبوَّته في جامع خَدَّيْه الأزهر
فنبيُّ الحُسْن له صَلَّى وبلال الخال له كبَّر
قالتْ شفتاه لمُرتَشِف إنا أعطيناك الكوثر

بيد أنَّ سامية، الغادة الحسناء هذه، كانت من نصيب الدكتور مهران؛ إذ وجدت فيه بغيتها من شبابٍ وصحة ومركز، فزُفَّت إليه واستقرت في بيتها وكرَّست حياتها لإسعاده، وأشرَفَت على راحته بكل ما أُوتِيَت من طاقة … صحيح، أنها لم تتزوج الدكتور مهران إلا بعد أنْ تأكَّدت من حُبِّه الشديد لها، ومن أنها أحبَّتْه من أعماق قلبها، فحسدَتْها بنات جلدتها على حظها الرائع؛ إذ كان الدكتور مهران من أُسرة طيبة شريفة المَحتِد، ميسورة الحال. ولم يَنجُ

الدكتور مهران نفسه من الحسد؛ لأنه تزوج ملكة الجمال هذه ذات العينين النجلاوَيْن الفَتَّاكَتَي اللِّحَاظ.

مضى العام الأول من زواجهما، وتاقَت سامية إلى طفل يحمل اسم أبيه وتَقَر به عينها، ولكنَّها فُوجِئَت بعدم رغبة الدكتور مهران في الإنجاب، وهكذا بدأت أول مشكلة تنغص عليها حياتها الهادئة.

أخذَت سامية تسأل نفسها: لماذا تزوَّجَني ما دام لا يريد أنْ يكون له أطفال مِنِّي؟ وما جدوى هذا الزواج؟ أريد إشباع ما بداخلي من عاطفة الأمومة ... وكاد النوم يطير من عَيْنَي سامية وهي تستعرض مَصيرها مع زوجها إخصائي أمراض النساء والولادة ... تُرى، أهناك علاقة بين عمله كطبيب نساء، وبين كراهيته للإنجاب؟

حاولت سامية جهدها أنْ تُقنع زوجها بضرورة الإنجاب؛ لأن هذه سُنَّة الله في خلقه، وجُعل الزواج للمحافظة على بقاء الجنس ... لا يتزوج الناس لمجرد المتعة الجنسية، وإنما ليُنجِبوا ذرية تخلِّد ذِكْرَهم، وترث ممتلكاتهم وتسعدهم، وتكون سببًا في الاستقرار العائلي ... ولكنه كان عنيدًا في هذه الناحية ... لا يريد إنجاب أطفال بأية حال من الأحوال.

مضَت خمس سنوات كاملة، على زواج سامية بالدكتور مهران. أجهضها خلالها مرتين، رغمًا منها، وهي تبكي ... ثم شاءت الظروف أنْ سافر الدكتور مهران في مُهمَّة إلى الخارج، استغرقت شهرين. فلما عاد، فوجئ بزوجته سامية تخبره بأنها حامل ... فغضب وثار، وهاج وماج، وأصرَّ على أنْ يجعلها تتخلص من الجنين.

غير أنَّ سامية أصرَّت على بقاء الجنين، مَهما يكلفها بقاؤه ... وهنا احتدَم الخلاف بين الزَّوجَين، فاضطرَّت سامية إلى ترْك منزل الزوجية،

وذهبتْ إلى بيت أمها غاضبة من الدكتور مهران العنيد ... فاستقبلَتْها أمها مُرحِّبة، وشجَّعتْها على الإنجاب؛ إذ كانت تتوق هي أيضًا إلى أنْ تصير جدة من ابنتها الوحيدة سامية، أجمل فتيات حي العباسية.

بعد سبعة شهور من بقاء سامية في بيت أمها، جاءها المخاض، فذهبت إلى مستشفى حيث وضعت طفلة جميلة، تحكي جمال أمها، فسمَّتها «وردة» ... وبعد فترة بقائها بالمستشفى، انتقلتْ إلى بيت أمها، فأسرعَت إلى طلب زوجها الدكتور مهران بالتليفون، تزُفُّ إليه البشرى السعيدة بأنه صار أبًا لابنة فاتنة، اسمها «وردة».

ما كان من الدكتور مهران المتعنِّت، عند سماعه هذا النبأ، إلا أنْ أقفل التليفون في وجه زوجته، بعد أنْ أفهمها أنَّ هذه الوردة ستكون سبب فِراقِه عنها طول حياته.

وبعد فترة قصيرة، من المناقشات والجدال والشد والجذب، بالتليفون، رماها الدكتور مهران بيمين الطلاق، فاستقبلَتْه راضية بصدر رحب.

ما هي إلا بضعة أشهر، حتى بلغ سامية نبأ زواج الدكتور مهران من صديقتها الحميمة «أزهار»، التي كانت تعتبرها أختها، وليس مجرَّد صديقة ... فحزَّ هذا عميقًا في قلبها الذي امتلأ بكراهية الرجال والدنيا. وآثرت أنْ تعيش بمعزل عن الناس، وتتفرغ تمامًا لتربية وردة، التي كانت تشبه الوردة في حُمرة خديها ونعومة بَشرَتها وابتسامتها الحلوة ... لم يُغضِبها زواج مهران، وإنما أغضبها أنْ تَقبَل صديقتها أزهار بأنْ تتزوَّج مُطَلِّق صديقتها سامية ... هذه خيانة ما بعدها خيانة، ونذالة سافرة. واعتبرتْ أنَّ أزهار إنما فعلت هذا، لتغيظها وتكيد لها وتشمت فيها، غير عالمة بأنه:

إذا ما الدهر جَرَّ على أناس كَلاكِلَه أناخ بآخَرِينا
فقُل للشامِتِين بنا أَفِيقوا سَيلْقى الشامتون كما لَقِينا

استمر زواج أزهار بالدكتور مهران مدة عامين، لم تنجب خلالها أية أطفال. ولما أبدت له رغبتها في الإنجاب، أعاد على مسامعها نفس قصته مع سامية، وأكد لها رغبته في عدم إنجاب أطفال، مَهما تكن العاقبة. وذكر لها أنه لم يطلِّق سامية، رغم حبه الشديد لها، إلا لكونها تشبَّثتْ بالحمل وأبقْتِ الجنين في أحشائها مخالِفةً مبدأه.

رفضت أزهار قَبول مَنطِق زوجها، مما أدَّى إلى الخلاف المستمِر بينهما، فاختصرت الطريق، وطلبت الطلاق، قبل أنْ يَحدُث لها ما حدَث لصديقتها السابقة سامية.

تم الطلاق بين مهران وأزهار التي شَمتت في سامية، فلَقِيت نفس مصير مَن شَمتت فيها ... وأرادت أنْ تعود إلى صداقتها مع سامية، بيد أنَّ سامية أَبَتْ أنْ تصادقها، وطردتها من بيت أمها شر طردة.

بعد فترة وجيزة من طلاق أزهار، أحس الدكتور مهران برغبة شديدة في أنْ يرى ابنته وردة، بعد أنْ سمع من المُقرَّبِين إليه، وَصْف جمالها الخارق الذي فاق جمال أمها أيام شبابها، وإعجابهم بابتسامتها الجذابة الحلوة، كما أحسَّ بفداحة الجريمة التي اقترفها في حق زوجته الأولى سامية التي أحبها من كل قلبه.

ذهب الدكتور مهران إلى بيت حماته، وطلب منها أنْ يرى ابنته وردة، وكان قد أخذ لها معه الكثير من الهدايا واللعب الجميلة الثمينة، رغم أنها لم تبلغ، بعد، الثالثة من عمرها، فما إنْ أبصر ابنَتَه حتى انهال عليها تقبيلًا،

وأُعجِب بها أيَّما إعجاب، وأحس بعاطفة الأبوة تتحرك في أحنائه، وتسري في دمائه، وهنا تضاعَف حبه لزوجته الأولى سامية، وندم على تطليقها وهو في سورة غضبه.

أبدَى الدكتور مهران رغبته في إعادة سامية إلى عِصمَته، وذَكَر لها أنَّ كل ما حدث، كان بدافع الغضب، فقالت له حماته: ليس لي أنْ أفرض إرادتي على سامية، فهي سيدة كاملة ذات عقل راجح، وليست قاصرًا، وعلى العموم، بوسعي أنْ أستدعيها لك، وهي تتكلم بنفسها، أما من جهتي فأعلم أنَّ الصلح خير، لا سيما بعد أنْ أنجبتما هذه الطفلة البريئة، وليس من العدل أنْ تَتربَّى بعيدًا عن أبيها ... هذا رأيي، ولكني لا أستطيع إملاء إرادتي على سامية، وخصوصًا؛ لأنها تعيش معي في بيتي، وربما تظنني قد تضايقتُ من وجودها عندي.

جاءت سامية، فسلَّمت على مهران كما لو كان رجلًا غريبًا لا تعرفه، ولا سبق أنْ رأَتْه وعاشرَتْه، ففاتَحها الدكتور مهران في رغبته في العودة إلى سابق عهدهما، وأن يردَّها إلى عِصْمَته، وأبدى لها نَدَمه وأَسَفه الشديد على ما بدَر منه، وأن هذا كله لم يكن سوى وقفة الشيطان لعنه الله، وأقسم لها بأغلظ الأيمان على أنْ يكون لها نِعْم الزوج، ولوردة نعم الأب، وأنه ما عاد يُغضِبها، وقال إنه على استعداد لفعل كل ما تريده، وما تطلبه ترضيةً لها، واعتذر لها عن زواجه الأحمق بأزهار، صديقتها الزائفة التي قضى معها أيامًا كان يحس فيها بوخز الضمير، كالأشواك تلهب جسمه وعقله، وكبده وقلبه، وما كان منه إلا أن استدعى المأذون بالتليفون إلى منزل حماته فردَّ سامية إلى عصمته رسميًّا.

وهكذا صحب مهران سامية وودة إلى بيته، وعادت المياه إلى مجاريها ... فزغردَت أمها بملء فِيها كما لو كانت ابنتها عروسًا تُزَف إلى عريسها ... ولكن الواقع أنَّ وردة هي التي كانت عروس الحفل؛ إذ هي التي استطاعت بجمالها الفذ أنْ تعيد أباها إلى صوابه.

عاشت سامية بقية حياتها مع الدكتور مهران، سعيدة، وذهبت وردة إلى المدرسة وتقدَّمَت في دراستها حتى تخرجت طبيبة أمراض نساء وولادة مثل أبيها ... وتزوجت وأنجبَت، وصار الدكتور مهران الذي رفض أن يكون أبًا، صار جدًّا عن طيب خاطر، وسبحان من يغيِّر ولا يتغيَّر.

الفصل العشرون

الزواج الفاشل

نرجس فتاة حسناء يتمنَّى كل شاب أنْ يكون لها زوجًا؛ إذ هي مليحة الوجه والملامح، مَمشُوقة القوام محتشِمَة في ملبسها، ومستقيمة جدًّا في سلوكها، تؤدي فروض ربها من صلاة وصوم ومَحبَّة الناس، والعفو عن المسيء، ومساعدة كل من كان بحاجة إلى مساعدتها ... مات أبواها كلاهما، وهي ما زالت طفلة في غضاضة الإهاب، فتولَّت خالتها تربيتها وأرسلتها إلى المدرسة حتى نجحَت في التوجيهية بتفوُّق فاكتفَت بها، ولم تشأ أنْ تلتحق بالجامعة؛ لئلا ترهق خالتها بالنفقات وأثمان الكُتب التي صارت خيالية، فضلًا عن الأجهزة العلمية والملابس والمواصلات، وما إلى ذلك.

أحبَّت نرجس شابًّا اسمه صلاح رغم أنه لم يكن جامعيًّا، ولا ذا مركز سامٍ، ولا ثريًّا. وإنما كان دون المتوسِّط ... أحبَّته نرجس ووجدَت أنه الشاب المناسب لأن يكون لها زوجًا تستقر معه، وتخفف العبء عن خالتها ... وتمَّت خطوبتها له.

بيد أنَّ دوام الحال من المحال، فقد عادت نرجس إلى بيتها ذات يوم، بعد الخطوبة بوقت قصير، عادت غاضبة حانِقة، تحمل هموم الدنيا كلها فوق رأسها، وقرَّرتْ في نفسها أنْ تفسخ خطوبتها من صلاح؛ إذ تأكدت من أنه لا يصلح زوجًا لها، وأنها خُدِعت فيه قبل الخطوبة، وأدركت أخيرًا أنه ليس

بالزوج الذي يمكنها أنْ تعتمد عليه. وعلى أية حال هي في الثامنة عشرة من عمرها، ولا تزال أمامها فسحة من الوقت يأتيها فيها الزوج المناسب.

راح صلاح يزور نرجس في بيت خالتها، ولكنها لم تسترِح إليه بسبب العاهة التي تعوقه عن الحركة؛ إذ بساقه اليمنى عرج، ويلبس فيها حذاءً حديديًّا، نتيجة شلل أطفال أصابه وهو في حداثة سنِّه.

ضايقت هذه العاهة نرجس، رغم أنَّها حاولت كثيرًا أنْ تتغاضى عنها، ولكنها لم تستطع ذلك بينها وبين نفسها، وصارحَتْ خالتها بما يعتمل في نفسها من ناحية صلاح، وأبدتْ لها رغبتها في فسخ الخطوبة ... غير أن خالتها صدَّتْها وأخبرتها بأنها ترى أنَّ صلاحًا نعم الزوج لها. لا سيما وأنْ نرجس تحس بعصبية شديدة، وتأتيها نوبات من الصرع بين الحين والحين ... وعارضتها تمامًا في أنْ تفسخ خطوبتها.

عبثًا حاولت نرجس أنْ تقنع خالتها لكي توافق على فسخ الخطوبة من صلاح ... وأصرَّت الخالة، بصفتها بديلة والدة نرجس، على أنْ تستمر الخطوبة ويتم الزواج، سواء رَضِيَت نرجس أو لم ترضَ، خصوصًا وأن صلاحًا وافق على أنْ تعيش نرجس معه في بيت أسرته المكونة من خمسة أفراد: الأب والأم المُسنَّيْن، وشقيقتَيْن صغيرتين، وصلاح، وتكون نرجس هي السادسة.

جهَّزت الخالة كل شيء يلزم لزواج نرجس، واشترَت لها حجرة نوم فخمة، وزوَّدتْها بالكثير من الملابس واتَّفقَت مع صلاح على اليوم الذي يلائمه ليُزَف إلى نرجس. وهكذا تم الزواج، وانتقلتْ نرجس إلى بيت أسرة صلاح، حيث خصصوا لها حجرة تعيش فيها مع ابنهم.

ظنَّت نرجس أنها ستبدأ حياة جديدة مع هذا الصلاح، كلها سعادة وهناء، ووئام وحب متبادَل ... وتلْقَى الراحة والمحبة بين أفراد أسرته.

أحس والد صلاح ووالدته وشقيقتاه، بحب صلاح لنرجس؛ فدَبَّت الغيرة في نفوسهم جميعًا؛ لأن صلاحًا هو الابن الوحيد على شقيقتين، في الأسرة، وحسب عقولهم، لا يصح أنْ تأتي واحدة من الخارج فتنتزعه منهم ليحبها ويخلص لها ... وتم الاتفاق فيما بينهم على أنْ يناصبوها العداء، ويعتبروها مجرَّد خادمة، أو أقل من خادمة، وأن ينكِّدوا عليها عِيشَتها بمختلف الطرق، وبشتَّى الأساليب، فجعلوها تكنس البيت وتنظفه يوميًّا، وتطهو الطعام للأسرة، وتُعِد الحمام للعجوزَين، وتغسل ملابس ستَّة أشخاص، وتشتري حوائج البيت من السوق، وتضع المائدة لتناول الوجبات، وتغسل الأطباق والأواني بعد كل وجبة، ولم تفكر واحدة من الشقيقتين أنْ تساعدها، ولو في غسيل الأطباق، بل على العكس، إذا عطشتْ إحداهما، أمَرَت نرجس بأن تحضر لها كوب ماء حيث تجلس طالبة الماء.

إلى هنا، وكل شيء يُحتمل ويمكن أنْ يطاق إلا أنَّ ما لا يطاق، هو أنَّهم أوْغَروا صدر صلاح ضد زوجته نرجس، مختلِقين حكايات كاذبة لم تصدر من هذه الفتاة المسكينة، فأخذ صلاح، بدوره، يسيءُ معاملة زوجته، وشيئًا فشيئًا بدأ يتطاول عليها بالشتائم والسباب بأقذع الألفاظ، ثم بالضرب والصَّفع والرَّكل ... لم تستطع نرجس أنْ تطيق معاملة زوجها هذه. فضلًا عن اصطدامها مع حماتها العجوز أُم صلاح التي كانت تُمعِن في إذلالها بطرق تدرَّبَت عليها وأجادتها؛ إذ كانت عتيقة في المكائد والأذى والدَّس، وكانت مثال الحماة التي طالما نال من شرورها وأذاها الكثير من الأزواج، وكانت سببًا في كثير من حالات الطلاق والانفصال بين الزَّوجين، وتشريد الأبناء.

وذات يوم، بينما كان جميع أفراد الأسرة جلوسًا إلى مائدة الطعام، إذ شكَتِ الحماة لابنها من تصرفات زوجته نرجس، وكانت الشكوى ملفَّقَة وكيدية، فأراد هذا الصلاح القاسي الغافل أنْ يكسب رضى أمه، ويظهر لها ولاءه، فصَفَع زوجته أمامها صفعة بكل قواه، فكسر إحدى أسنانها، فتركَت المائدة، غاضبة تبكي، فلم يهتم بها أي واحد من الجالسِين ... وزيادة على ذلك كالَ لها صلاح الشتائم ووصفها بأحط الصفات أمام والديه وشقيقتيه، والأم تقول له: مَرْحَى يا صلاح، حقيقةً أنت رجل من ظهر أبيك! هكذا تكون شهامة الرجال، تسلم يدك.

لم تحتمل نرجس ما لحقها من إهانة، وتشجيع كل الأسرة لصلاح، وامتداح ما فعله ... فجمعَتْ ملابسها، وأصرَّت على ترك البيت ومن فيه، وذهبت إلى بيت خالتها.

حكت نرجس لخالتها كل ما لقيته من أسرة صلاح ومن صلاح نفسه بإيعاز أمه وأختيه، وأقسَمَت لها على أنها لم تَزِد شيئًا قط، بل تركَت الكثير ... فتضايقت الخالة؛ لأنها هي التي أرغمت ابنة أختها على الزواج من صلاح والإقامة مع أسرته بعد أنْ أرادَت نرجس فسخ الخطوبة، ولكنها هدَّأت من روع نرجس، وأحسنت وفادتها، ورحَّبت بمقدمها إلى بيتها الذي شَبَّت فيه وترَبَّت منذ الصغر، وشجَّعتها على ألا تعود إطلاقًا إلى هذا الوغد حتى ولو انفصل عن أولئك السَّفَلَة واستأجر بيتًا خاصًّا به، كلَّا، لن تعودي إليه حتى ولو أقام الدنيا وأقعدَها، وأطلق الجحيم من عقالها ... وحتى إنْ جاء وركَع تحت قدميكِ وقبَّلهما مستغفرًا تائبًا.

ما هي إلا أسابيع، حتى بَرَز بطن نرجس وتحرَّك الجنين في أحشائها، ولما فحصَها الطبيب أخبرها بأنها حامل في الشهر الثالث.

أشارَت الخالة على نرجس بضرورة التخلّص من هذا الجنين؛ إذ لو عاش لاضطُرَّت إلى أنْ تعود إلى زوجها صلاح كي يتربَّى الطفل عند أبيه الذي لا يستحق أنْ تكون نرجس زوجته وأم أولاده، فرغم أنها خدمت أهله خدمة لا تقوم بها أية خادمة، إلا أنه أساء معاملتها وأهانها ترضيةً لأمه الحيزبون.

وافقَتْ إحدى طبيبات أمراض النساء، على أنْ تقوم بعملية إجهاض نرجس من الجنين الذي في بطنها، لا سيما وهو في الشهر الثالث، أي في أوائل مراحل نموه.

شاء سوء الحظ أنْ تموت نرجس في هذه العملية ... وعاشتْ خالتها معذَّبَة طول حياتها؛ لأنها كانت السبب فيما حدث لابنة أختها، يتيمة الأبوين، التي ربَّتْها إلى أنْ صارت عروسًا.

حزن صلاح على ما حدث لزوجته، واغتمَّ كثيرًا، ولام نفسه على ما بدَر منه في حقها، وأصيب بنوع غريب من الاكتئاب، فَكَرِهَ نفسه وكَرِه الدنيا بأسْرِها، واعتبر نفسه المسئول الوحيد عَمَّا حدث لزوجته وحبيبته نرجس، وقرر أنْ ينتحر، فشَرِب السم، ومات. وماتَت مِن بعده أمه؛ حزنًا على ولدها ... كما أصيب أبوه بالعمى كمدًا ... ووجدَت الشقيقتان الشريرتان نفسيهما بلا عائل، فاضْطُرَّتا إلى أنْ تَعملا خادمَتَين في البيوت لتكفُلا نفسيهما وأباهُما الضرير.

الفــــهــــــرس

مقدمة
١ – لوعة الحب
٢ – دولة الظلم ساعة
٣ – من الحريات ما يقتل
٤ – فرحة ما تمَّت
٥ – وفاء والوفاء
٦ – رحماك يا رب فأنتَ أرحم الراحمين
٧ – يا وارث! من يرثك؟
٨ – يحيا الحب مع الحرية
٩ – جسد بلا قلب
١٠ – حلم تحقق!
١١ – القلب الممزق
١٢ – لكلِّ مجتهد نصيب
١٣ – الزواج القاتل
١٤ – عندما يموت الحب
١٥ – مصطفى وولده
١٦ – ملك الملوك إذا وهب لا تسألنَّ عن السبب
١٧ – الانسحاب التام
١٨ – كرامة المرأة الفاضِلة فوق كل اعتبار
١٩ – وردة بلا أشواك
٢٠ – الزواج الفاشل